



حالة الليل وحسب

إحسان عبد القدوس



العقود
73

مطبوعات
أخبار اليوم
قطاع الصحافة

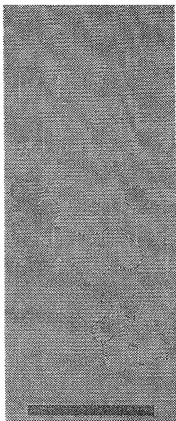
رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سمعده



دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠





الإخراج الفني :

مجدي حجازي

الغلاف بريشة الفنان :

سيد عبد الفتاح





لا تسألوا الناس
اسألوا الظروف !!
إحسان



حالة الدكتور حسن

سنة إحصان عبد القدوس الكاملة • مكتبة إحصان عبد القدوس الكاملة •

كنت قد انتهيت من بحث آخر « حالة »
 عرضت على في ذلك المساء .. وطويت
 مذكراتي الطبية ، وبدأت استعد لمغادرة
 العيادة والذهاب إلى البيت..
 ودخل مساعدى يعرض على كشف
 الحالات الجديدة التى اتصلت بالعيادة ، وحدد لكل منها
 موعدا .. بعد أسبوع على الأقل !
 ولمساعدى طريقة خاصة يحاول بها دائما أن يقدم
 موعد إحدى الحالات على الأخرى .. إنه إنسان طيب ،
 تأثير عاطفته أحيانا حالة معينة فيحاول أن يساعدها ..
 وهو في الوقت نفسه يعلم أنى حريض على النظام الذى
 وضعته لاستقبال مرضاى - أو لاستقبال الحالات -
 ويعلم أنى اعتبر كل الحالات متساوية في الأهمية
 والخطورة ، إلى أن تشفى ، باستثناء حالات عاجلة
 يكون فيها المريض يعانى أزمة قد تنتهى بالقضاء على
 حياته .. لذلك يضطر مساعدى أن يلجأ إلى هذه الطرق
 الخاصة عندما يتحرك قلبه الطبيب شفقة على إحدى

الحالات .. ورغم أنى أقهم تماما هذه الطرق التي يتبعها.. أفهمها بمجرد النظر في عينيه ، إلا أنى غالبا ما أستجيب لها ، تقديرا لقلبه الطيب .. وثقتى به !
وقال مساعدى ، وهو يعرض على قائمة الحالات ،
ولا ينظر في عيني :
— إن السيدة حرم الدكتور حسن عزمى لا تزال تنتظر !

ونظرت إليه في دهشة .. فانى أسمع عن اسم الدكتور حسن عزمى من زمان .. إنه من ألمع رجال الاقتصاد في مصر ، وكان وكيلا للبنك الأهلى ، ثم أصبح رئيسا لاتحاد الصناعات رغم أنه لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره .. وقد سبق أن التقيت به في عدة اجتماعات ، وراعى منه هدوؤه .. هدوء أكثر من اللازم .. وحرصه الشديد المتعمد في كل كلمة يقولها ، كأن كل كلمة يوقع بها شيكا بالف جنيه.. ولاحظت فيه أيضا بعض الغرور الذى يبدو في مظهره ، وتصرفاته .. ورغم ذلك فقد كنت معجبا به .. كان فيه شيء يجذبك إليه ، ويجعلك تصبر إلى أن تتلقف منه هذه الكلمات النادرة التى يوقع بها الشيكات .

وأخفيت دهشتى بسرعة عن مساعدى ، فقد كنت اعلم أنه قد بدأ يلجأ إلى إحدى هذه الطرق التى يستغلها للاخلال بنظام العيادة .. أن يترك المريض ينتظر إلى أن انتهى من بحث آخر حالة..
وقلت له ببرود :

— مواعيد العيادة انتهت ؟

قال وهو ينظر إلى من تحت رموش منكسة :

— لقد جاءت في الساعة السابعة ، ثم خرجت ، وعادت منذ نصف ساعة .. وهى تقول لى إنها تريد استشارة لن تستغرق أكثر من خمس دقائق !

قلت وأنا ابتسم له أطيّب خاطره :

— دعها تتفضل ..

ودخلت ..

سيدة جميلة لا تزيد على الثلاثين .. جمالها مهذب .. ليس على وجهها كثير من المساحيق .. وشفتاها مصبوغتان بأحمر هادئ .. وتسريحة شعرها الأسود تدل على اتزانها .. رشيقة في حركاتها .. والصحة تبدو على وجهها .. بشرتها مشدودة ، وعيناها صاحبتان ، وابتسامتها ابتسامة ثقة بالنفس .

وقالت وهى تمد يدها تصافحنى :

— أسفة يا دكتور .. كان يجب أن أراك ..

ودعوتها إلى الجلوس على المقعد الكبير الموضوع بجانب مكتبى، وجلست خلف المكتب ، وفتحت مذكراتى الطبية من جديد ، وأنا حريص على ألا أبدو كائن أعرفها أو أعرف زوجها ..

وقبل أن أسألها الاسئلة التقليدية عن اسمها وسنها ، قالت بسرعة كأنها تستمهلنى قبل أن أكتب :

— ليس أنا .. إنه زوجى !

قلت وأنا لا أستطيع أن أخفى دهشتى :

— الدكتور حسن !

قالت وهى تحول عينها عنى :

— نعم .. منذ مدة طويلة تنتابه حالات مرضية عجيبة ..
إنه فجأة يفقد القدرة على الكلام .. ويبدو كأنه أصيب
بالشلل .. لسانه يثقل إلى حد لا يستطيع تحريكه ، وتنتاب
يده اليمنى رعشة .. وتستمر هذه الحالة يومين أو ثلاثة ..
ثم تنتهى .. تنتهى فجأة أيضا .. ومنذ عامين ونحن نطوف
على الأطباء ، فى مصر والخارج .. وأكدوا كلهم أن ليس به
شئ عضوى يمكن أن يؤدى إلى هذه الحالة .. كل التحاليل
وصور الأشعة أثبتت سلامة قلبه ، وسلامة جسده ..
وأجمع ثلاثة من الأطباء على أن هذه الحالة قد تكون نتيجة
أزمة نفسية .

وسكنت وهى تنتهد ، وعلى وجهها مسحة من الأسى ..

وقلت أحاول أن أخفف عنها :

— هذا محتمل .. إن الأزمات النفسية تشد أحيانا إلى
حد أن تؤثر فى بعض مراكز المخ ، فتصاب بعض أعضاء
الجسد بالشلل المؤقت .

قالت :

— أعرف ذلك .. ولكن المشكلة هى أن زوجى يرفض أن
يذهب إلى طبيب نفسانى .

— هذه مشكلة كثير من المثقفين .. إنهم قد يؤمنون بعلم
النفس ، ويقتنعون به .. ولكنهم لا يؤمنون بالأطباء
النفسانيين ولا يقتنعون بهم :

قالت كأنها تلومنى :

— لماذا ؟

قلت :

— إنه نوع من الغرور الثقافى .. والواقع أن الانسان لا يذهب إلى الطبيب ليشخص له مرضه ، ولكنه يذهب إليه ليصف له الدواء.. إن الانسان يعرف غالباً مرضه .. يعرف أنه مصاب فى كليته .. أو فى أمعائه .. أو أن إصبعه مجروح.. ولكنه لا يعرف الدواء .. لأن معرفة الدواء تحتاج إلى تخصص .. ولأن استعمال الدواء يحتاج إلى الحرص ، وقد يكون خطراً .. لذلك يذهب المريض إلى الطبيب ليصف له الدواء ، ويتناوله وهو واثق من أنه لا يتعرض لخطر .. أما طب النفس فليس فيه دواء .. ليس هناك أدوية لشفاء النفس كالأدوية التى تشفى الصداع ، والزكام ، والمغص .. إنه طب يقوم على التشخيص وحده .. أو التحليل .

قالت كأنها تريد أن تقنعنى بأهميتى :

— ولكن التشخيص أيضاً يحتاج إلى طبيب ..

قلت وأنا ابتسم لأطمئنها إلى أنى لم أفقد إحساسى

بأهميتى :

— هذا ما قصدته بتعبير الغرور الثقافى .. فتنظريات علم النفس، وتجارب علم النفس ، أشبه بالقصص المثيرة .. إنها تجذب كثيراً من القراء .. وكتب علم النفس تباع فى المكتبات وعلى الأرصفة، كما تباع قصص أرسين لوبين والفرسان الثلاثة.. وقد كان علم النفس يعتبر إلى عهد قريب نوعاً من الثقافة العامة ، أكثر منه علماً يحتاج إلى تخصص .. لذلك فأكثر المثقفين يعتقدون أنه يكفيهم أن يقرأوا كتباً فى علم

النفس ، ليستغنوا عن الطبيب النفسانى .. والواقع أن بعضهم ربما قرأ فى علم النفس أكثر من كثير من الأطباء النفسانيين .

قالت فى عصبية :

— إن زوجى يقرأ كثيرا فى علم النفس .. مكتبته كلها لا تضم إلا كتباً فى الاقتصاد ، وكتباً فى علم النفس .. فهل يكفى ذلك ليستغنى عن الطبيب النفسانى .. هل يستطيع أن يعالج نفسه :

قلت فى هدوء :

— لا ..

قالت وهى تضغط بيدها على حافة مكتبى :

— إذن ما العمل ، وهو يرفض أن يذهب إلى طبيب يحل له نفسه ؟

قلت :

— لا أدرى .. ولكنه يجب أن يذهب إلى الطبيب بإرادته واقتناعه .. إن إجباره أو الضغط عليه ليذهب إلى طبيب لن يفيد .. لن يؤدى إلى نتيجة سريعة .

قالت وهى أكثر حدة :

— هذا ما جئت لاستشيرك فيه .. منذ عام وأنا ألح عليه فى أن يأتى إليك .. حاولت إقناعه بكل وسيلة .. ولكنه يرفض .. ويصر على الرفض .. إنى لم أعرفه أبدا عنيدا إلى هذا الحد ..

قلت :

— هل اقترحت عليه أن يسافر إلى الخارج ، ويعرض

نفسه هناك على أحد الأطباء النفسانيين .. إن بعض المثقفين قد تنقصهم الثقة في الأطباء المحليين .. أطباء مصر .. وبعضهم ، ممن يعترفون بأنهم في حاجة إلى طبيب نفسي، يحسون كأنهم يكشفون عن عورة .. ويفضلون أن يكشفوا عورتهم أمام طبيب أجنبي .. بدلا من أن يكشفوها أمام طبيب من بنى وطنهم .. و ..

قالت تقاطعنى :

— اقترحت عليه أن يعرض نفسه على طبيب نفسى فى إنجلترا.. أو فى ألمانيا .. وقد سافر إلى إنجلترا وألمانيا عدة مرات خلال هذا العام ، ولكنه لم يعرض نفسه على أحد .. مشكلته أنه لا يؤمن بالأطباء النفسانيين .. بمهنة الطبيب النفسى ..

قلت كأتى أحداث نفسى :

— أحسن ..

قالت فى دهشة :

— ما هو الأحسن ؟

قلت :

— أحسن أنه لم يعرض نفسه على طبيب أجنبى !

قالت وقد اشتدت الدهشة فى عينيها :

— لماذا ؟

قلت :

— لأن التحليل النفسى ، يعتمد فى كثير من نواحيه على تحليل البيئة والمجتمع الذى يحيط بالمريض ، والأطباء الأجانب يجهلون عادة تفاصيل هذه البيئة وهذا المجتمع ..

إن خير من يحلل نفسية مريض أمريكي ، طبيب أمريكي ..
والمريض الألماني في حاجة إلى طبيب ألماني .. وهكذا ..
قالت :

— والنتيجة .. كيف أتى به إليك ؟

قلت :

— لا أدري ..

قالت وقد عادت تحتد :

— ولكن هذا ما جئت لاستشارتك فيه ..

وسكت .. أفكر ..

وحنت رأسها ، ثم تلمست حقيبتها استعدادا
للانصراف... وأنا أنظر في وجهها وأرى لهفتها على زوجها ..
وأحس بدافع قوى يدفعني إلى نيل ثقتها واحترامها ..
وأحس في الوقت نفسه بمسؤوليتي عن شخصية لامعة
كشخصية الدكتور حسن عزمي .. فأفكر أكثر .. وعقلي
يدور داخل رأسي بسرعة ليجد حلا لمشكلة الدكتور حسن .
وقامت من مقعدها ، في تباطؤ كأنها تشعر بالآلام في
مفاصلها ، وخيل لي أن بشرتها المشدودة ، قد بدأت
تتكرمش .. وقالت في صوت كسير دون أن تمد يدها
لتصافحني :

— أسفة يا دكتور .. أزعجتك .. إنني واثقة أن هذه

الزيارة ستكون سرا بيننا .

وفجأة لمع في ذهني خاطر ، وقمت واقفا ، وقلت متجاهلا
الإهانة التي وجهتها لي وهى توصيني بالاحتفاظ بسرها ..
وسر مهنتي

— ألا يعلم الدكتور حسن بزيارتك لى ؟

قالت :

— لا ..

قلت بسرعة :

— ألم تذهبى إلى طبيب نفسى آخر قبل ذلك ، وعلم
بذهابك إليه ؟

قالت :

— لا .. أنت أول من أعرض عليه مشكلتى .. ومشكلة
الدكتور حسن ..

قلت :

— إذن ، قولى له ..

قالت وحاجباها يرتفعان فوق عينيها ويرسمان الدهشة :

— أقول له ماذا ؟

قلت فى حماس :

— قولى له إنك جئت إلى ، وإنك اطلعتنى على حالته ..

قالت :

— قد يغضب ..

قلت :

— أريد أن يغضب .. وغضبه سيؤدى إلى أحد
احتمالين.. إما أن تسوء حالته النفسية إلى حد أن يشعر
بحاجته إلى طبيب نفسى.. فيأتى إلى .. وإما ألا تسوء حالته
عما هى عليه ولكنه يحس أنه قد جرح فى كبريائه وفى
غروره فيأتى ليبرر زيارتك لى ، ويعتذر عن تصرفك ، وينكر
ما قلته لى ، وفى هذه الحالة سأحاول استدراجه للعلاج ..

ورفعت رأسها وبين شفتيها ابتسامة صغيرة ، ثم عادت
وسحبت ابتسامتها ، وارتفع الكدر في عينيها ، وقالت :
— ولكن لنفرض أن حالته ساءت ورغم ذلك لم يأت
إليك .. بقى على عناده ..

قلت مؤكدا :

— إنه سيأتى قطعاً .. وإذا لم يأت فى خلال أربعة أيام ..
تعالى أنت إلى مرة ثانية .. ثم عودى وبلغيه أنك جئت إلى
وإنك رويت لى مزيداً من التفاصيل .. وكررى هذه الزيارات
إلى أن يأتى هو ، سواء للعلاج .. أو لتبرير تصرفك .
قالت فى أسى :

— أليس هناك وسيلة أخرى ؟

قلت :

— اعترف أنها ليست وسيلة طبيعية .. ولكننا مضطرون
إليها ..

قالت وهى تزفر أنفاسها :

— كما ترى ..

ثم صافحتنى وهى تبسم ابتسامة صغيرة ..
وفتحت لها الباب ، بعد أن حددت لها موعداً بعد أربعة
أيام ..

وسجلت موعد زيارتها لى فى مذكراتى الطبية ، ثم عدت
إلى بيتى وأنا أفكر فى حالة الدكتور حسن ..

والدكتور حسن رجل مثقف .. والمتقون هم أتعب أنواع
المرضى النفسانيين؛ لأن ثقافتهم تقف دائماً حائلاً بينهم
وبين الاستسلام للطبيب ، ثم الاستسلام لأنفسهم .. إن

هذه الثقافة تمثل نوعاً من الإرادة .. إرادة التمرد .. التمرد على الطبيب ، والتمرد على أنفسهم .. وأغلب جلساتي مع المرضى المثقفين تضيع في مناقشات ثقافية بيني وبينهم .. يحاول فيها المريض أن يتباهى بثقافته ، بل أحياناً أحس أنه يحاول أن يتخذ مكان الطبيب ، ويضعني في مكان المريض .. والمثقفون أكثر تعرضاً للحالات النفسية ، من الجهلاء ، أو ممن هم أقل ثقافة .. وقد سبق أن قلت في إحدى حلقات هذه المذكرات التي أكتبها تحت عنوان « الناس والظروف » أن الأغنياء أكثر تعرضاً للحالات النفسية من الفقراء .. لأن الفقير يشغله البحث عن لقمة العيش عن مواجهة أزماته النفسية .. أنه محتاج في كل لحظة إلى عقله الواعي لبحث به عن رزقه ، وهذه الحاجة تجعل العقل الواعي نشطاً دائماً ، وقوياً ، وتجعل العقل الباطن الذي ترسب فيه العقد النفسية يذبل ويضعف ولا يقلق صاحبه .. فإذا ثار العقل الباطن للفقير ، ثار فجأة وانطلقت منه العقدة في تصرف عنيف ، كأن يقتل ، أو ينتحر ، أو يصاب بالجنون ، دون أن تسبق هذه الانطلاقة معاناة مستمرة .. أما الغنى فإن الفراغ الذي يحيط به يجعل عقله الواعي يتكاسل ، وهذا التكاسل يترك للعقل الباطن مجالاً للنشاط وللسيطرة .. وتبدأ المعاناة النفسية .. وكذلك المثقفون ، والجهلاء .. فالجاهل ليست له القدرة عادة على مخاطبة نفسه واستثارة العقل الباطن .. أنه لا يعتمد ذلك .. أما المثقف ، فإنه يستعمل ثقافته كأداة للبحث في نفسه .. كفأس يحفر بها داخل نفسه .. وهو بذلك يستثير عقله الباطن ، ويعرض نفسه للأزمات النفسية ..

فإذا قرأ في كتب علم النفس ازدادت حالته سوءاً أو ازداد تعرضاً للحالات النفسية .. لأن كتب الطب عموماً تحتاج أثناء القراءة إلى إرادة قوية لتفصل بين عقلك الذي تفهم به ما تقرأه ، وإحساسك بما تقرأ .. إنك إذا قرأت كتاباً علمياً عن مرض السرطان تحس - إن لم تكن قوى الإرادة - بكل الأعراض التي تقرأ عنها تنتقل إلى جسدك .. وكذلك عندما تقرأ كتاباً في علم النفس ، تحس إنك مصاب بكل العقد التي يشرحها لك الكتاب .. وقد تكون مصاباً بإحداها فعلاً ، ولكن قراءتك عنها لا تؤدي إلى علاجها ، ولكن تؤدي إلى تضخمها .. والفرق بين الطبيب المتخصص والقارئ العادي عندما يقرأ كتاباً في علم النفس ، هو هذه الإرادة التي يفصل بها الطبيب بين عقله الذي يقرأ به ، وبين إحساسه بما يقرأ ..

هذه - على الأرجح - هي حالة الدكتور حسن .. رجل مثقف ترسبت في عقله الباطن عقدة نفسية ، واستعمل ثقافته كفأس يحفر بها في داخل نفسه ، ليصل إلى هذه العقدة ، ولكنه بدل أن يصل إليها استثارها ، وضخمها ، وزادها تعقيداً .

ومضت أربعة أيام ، ولم يتصل بي الدكتور حسن .. كنت أنتظره في عيادتي كل صباح وكل مساء ، وكنت أنتظره في البيت أيضاً لعله يتخرج من أن يتصل بي في العيادة فيتصل بي في البيت .

ولكنه لم يتصل بي ..

وجاءت السيدة حرمة في موعدها ..

إن هذه السيدة تثير احترامى إلى حد كبير ..
إنها سيدة كاملة .. كل شيء فيها يكاد يبلغ حد الكمال ..
اختيارها لثوبها .. للساعة الرشيقة البسيطة التى تحل بها
معصمها .. طريقة إمساكها بحقيبتها وفردة القفاز ..
خطوات مشيتها .. هدوء ابتسامتها .. اتزان كلماتها .. كل
شيء فيها يدعو إلى الاحترام .. ولا اعتقد أنى استطعت أن
أخفى إعجابى بها .. نظراتى فضحتنى .

وقالت قبل أن تجلس ، واللهفة تملأ وجهها :
— هل جاء إليك ؟

قلت فى أسف :

— لا ..

قالت وهى تتنهد وتجلس على المقعد الكبير بجوار
مكتبى :

— كنت أمتنى نفسى أن يجرى إليك دون أن يخبرنى ..
قلت :

— لنصبر .. إن أول مميزات الطبيب النفسى الصبر
الطويل ..

ومددت رأسى نحوها ، واستطردت :

— هل قلت له عن زيارتك لى ؟

قالت وهى تعبت بأصابعها فى فردة القفاز :

— نعم .. وكل التفاصيل ..

قلت :

— وكيف استقبل النبأ ؟

قالت :

.. بالصمت .. كعادته ..

قلت :

— هل هو يصمت دائما ..

قالت :

— إنه قليل الكلام .. وإذا تكلم فهو لا يعبر أبدا عن أحاسيسه .. عن عواطفه .. إنه يقول رأيه ، يعبر عن عقله .. ولا يعبر عن قلبه ، ولا عن إحساسه أبدا ..

قلت :

— كم مضى على زواجكما ؟

قالت :

— في سبتمبر القادم .. تم ثمانى سنوات ..

قلت :

— وكان دائما صامتا ..

قالت وهى ترفع عينيها إلى وجهى كأنها تبحث عما وراء

أسئلتي :

— دائما :

ثم عقدت حاجبيها كأنها تذكرت شيئا ، ثم قالت :

— اعتقد أنه ازداد صموتا بعد الزواج ..

قلت وأنا ابتسم لها حتى أخفف عنها وقع أسئلتي :

— هل عرفته طويلا قبل الزواج ؟

قالت :

— ثلاثة شهور فقط .. ولكنى قبل ذلك كنت التقى به فى

بعض المجتمعات ..

قلت :

— أى نوع من الأزواج هو ؟

قالت وهى تنتظر إلى كأنها تلومنى :

— مثالى .. كل شىء فى حياتنا يسير بنظام ودقة .

قلت :

— وعلاقتكما الخاصة ؟

ونظرت إلى فردة القفاز ، واحمر وجهها وقد فهمت

سؤالى .. ثم قالت وهى تبتلع ريقها :

— طبيعية .

قلت بلا حرج من طول ما مارست هذه الاسئلة :

— ليس فيها أى شذوذ ؟

قالت وهى تنتظر إلى بوز حداثها :

— لا ..

قلت :

— وهل العلاقة الخاصة تسير بدقة ونظام أيضا ؟

قالت وقد بدأ الضيق يبدو عليها :

— تقريبا ..

قلت :

— بمواعيد محددة ؟

قالت وهى تبتسم ابتسامة ضيقة تحاول أن تسمح بها

ضيقتها وحياءها :

— نعم .. تقريبا ..

قلت :

— هل يغار عليك ؟

واتسعت ابتسامتها قليلا ، وقالت :
— لا أدري .. قلت لك أنه لا يعبر عن عواطفه .. كل ما
اعلمه هو أنه يحبني .. ولكنه لا يعبر عن حبه ، إلا بحرصة
على راحتى ..

ثم رفعت رأسها واستطردت قائلة :
— هل تحللنى يا دكتور .. المفروض أن تحلل زوجى ..
قلت :

— إنى أحاول الآن أن أحلك .. ولكنى أحاول أن أجمع
بعض المعلومات الدقيقة عنه .. واتعمد أن أسالك هذه
الأسئلة الدقيقة ، ليثور عندما تنقلينها إليه .. ليتحرك ..
ليأتى إلى ..

قالت :
— إنه لن يثور .. إنى أدري به ..
قلت :

— سنرى ..
قالت وهى تجمع فردة القفاز فى يدها :
— هل يكفى هذا .. اليوم ..

قلت :
— يكفى ..
قالت وهى تنظر إلى كأنها تستمد منى الأمل :
— هل أنت واثق أنه سيأتى لو نقلت إليه ما دار بيننا ..
قلت :

— إن الطبيب النفسى يبحث عن إبرة فى قاع المحيط ..
وهو لا يثق أبدا من أنه سيجدها مهما بلغ استعداداه العلمى

ومهما بلغت دقة الأدوات التى يستعملها فى بحثه .. إن نتيجة البحث دائما فى علم الغيب ..

هزت رأسها فى يأس كأنها تلوم نفسها لأنها أتت إلى ،
وهمت بالانصراف .. واستوقفتها قائلاً :

— سؤال آخر لو سمحت .. متى بدأ الدكتور حسن يقرأ فى كتب علم النفس ..

ونظرت إلى كأنها لا تجد معنى لسؤالى ، ثم قالت بلا
مبالاة :

— طول عمره يقرأ علم النفس ..

قلت:

— ألم تلاحظى فترة معينة بالذات ، بدأ فيها يكثر من شراء كتب علم النفس .. وقراءتها ..

قالت بعد تردد :

— ربما .. منذ أربع سنوات .. اذكر ذلك لأن المساحة
المخصصة فى مكتبته لكتب علم النفس ضاقت .. واضطرونا
إلى شراء مكتبة صغيرة أخرى ..

قلت :

— هل كان ذلك بعد أن أصيب بالشلل ..

قالت :

— لا .. لقد انتابته نوبة الشلل الأول منذ ثلاث
سنوات ..

قلت :

— شكرا ..

قالت وهى تقوم وإقفه :

— هل أعود مرة أخرى ؟

قلت :

— إذا لم تسمعنى إن الدكتور حسن جاء لزيارتى ..

عودى إلى بعد أسبوع ..

وحددت لها موعدا جديدا بعد أسبوع ..

وخرجت ..

السيدة الكاملة ..



ومضى اليوم التالى ، واليوم الذى بعده ، ولم يتصل بى الدكتور حسن .. وبدأت أشعر أن بينى وبينه معركة .. معركة إرادة؟ إرادته وإرادتى .. هو يحاول ألا يأتى إلى .. وأنا أحاول أن أجذبه إلى .. وكانت تمر بى فترات أتمنى خلالها أن أراه ولو من بعيد .. أن التقى به فى أحد المجتمعات .. أن أراه والتقى به فى صورته الجديدة التى رسمتها لى أزمته النفسية .. ولكنى أيضا كنت أقاوم رغبتى فى أن أراه قبل أن يأتى إلى .. قبل أن يستسلم لى بإرادته .. كنت أخشى إن رأتى أو التقى بى ، أن يتزود بقوة جديدة يضيفها إلى إرادته .. أن تقلل رؤيته لى من رهبتى وخطورتى أمامه كطبيب يعلم عنه أشياء لا يجب أن يعلمها عنه أحد فتضعف بذلك المعركة بينى وبينه .

ثم ..

أخيرا ..

بعد خمسة أيام طوال ..

دق جرس التليفون فى بيتى ، وجاء السفرجى يعلن

أمامي اسم الدكتور حسن عزمي ..
وأسهرت إلى التليفون ، وسمعت صوته بطيئا مؤكدا كأنه
يقرأ من ورقة كتب فيها كلماته قبل أن يقولها :
— آسف لإزعاجك يا دكتور .. هل أستطيع أن أراك ؟
قلت بلا لهفة :
— طبعاً .. بكل سرور ..
قال :
— ليس في العيادة .. إنها مسألة خاصة كما تعلم ..
قلت :
— لا مانع .. متى ؟
قال وصوته البطيء الواثق يملأ أذني :
— إنني أعلم أنك تبدأ عيادتك الساعة السادسة .. هل
أستطيع أن ألقاك اليوم في الساعة الرابعة ..
قلت وأنا ابتسم لطريقة إلقائه لكلماته :
— أين ؟
قال بسرعة كأنه أعد الجواب على كل سؤال :
— في نادى الجزيرة .. في الليدو .. نتناول قهوا من
الشاي !
قلت :
— اتفقنا يا دكتور ..
قال :
— شكرا يا دكتور ..
وألقي سماعة التليفون بسرعة بعد آخر مقطع من آخر
كلمة ، كان الورقة التي يقرأ فيها قد انتهت ..

وانتهيت من تناول طعام الغداء ، وأخذت أراجع في ذهني كل معلوماتي عن الدكتور حسن .. كل ما سمعته عنه من زوجته .. السيدة الكاملة .. وكل ما سمعته وما عرفته من الآخرين .

ثم ذهبت إلى نادى الجزيرة ..

كانت الساعة الرابعة وخمس دقائق عندما دخلت إلى «الليدو» أو الشرفة الممتدة أمام حمام السباحة .. ورأيت من بعيد جالسا إلى إحدى الموائد .. وقام يستقبلنى .. عندما اقتربت منه .. طويلا .. رفيعا .. نحيل الوجه .. ونظارة سميقة تقف فوق عينيه كأنها تحرسهما ، وتحميهما من التراب .. وتفاحة آدم تبرز في أناقة من تحت جلد رقبته الطويلة .. وكل شيء فيه مرتب ، مهندم ، نظيف .. وعطر «مستاش» يحيط به .

وجلس بجانبى وهو ينظر في ساعته ، كأنه يلومنى برقة على تأخيرى ، ثم صفق يديه في هدوء ، يستدعى الجرسون ليحمل لنا الشاى .

وظل صامتا ..

قلت :

— هل تأخرت ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة مهذبة رقيقة :

— لا .. خمس دقائق فقط !

ثم عاد إلى الصمت كأنه في انتظار حضور الشاى ..

ولم أحاول أن أخرجه عن صمته .. بقيت صامتا بجانبه أدقق في وجهه .. إن وجهه مريح .. مريح إلى حد كبير ..

وليس فيه أية حركة عصبية .. عيناها ثابتتان .. أصابع يده ثابتة .. لا شيء يبدو عليه يدل على أزمته النفسية .. بل إنه يبدو أمامي كأفضل رجل يصلح زوجا لزوجته .. للسيدة الكاملة .

وجاء الجرسون يحمل إلينا الشاي ، ولاحظت ، والجرسون يضع على المائدة معدات الشاي ، لفطة سريعة من عيني الدكتور حسن .. لفطة تحمل نظرة لها بريق ، انطلق من تحت نظارته السمكة .. أعقبها بأن رفع أصابعه وتحسس أنفه .

والتفت إلى حيث وجه الدكتور حسن نظرته ، قرأت فتاة صبية قد لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها ، تسير نحو حمام السباحة مرتدية بنطلونا قصيرا .

ولا أدري هل تنبه الدكتور حسن إلى أنني لاحظت التفاتته أم لا.. ولكنه عاد بعد قليل والتفت بنفس النظرة في اتجاه آخر .. رفع أصابعه وتحسس أنفه أيضا .. وعندما نظرت في اتجاه نظرته وجدته قد نظر إلى رجل عجوز جالس في الشمس يقرأ جريدة .

وقد لا يكون فيما لاحظته شيء .. وقد يكون الدكتور حسن قد حاول أن يخدعني عن نظرته الأولى إلى الفتاة الصغيرة ، فنظر بعدها إلى الشيخ العجوز .

إننا كلنا نفعل نفس الشيء ، عندما نشعر أن غريبا قد ضبطنا ونحن ننظر إلى فتاة جميلة ، فنحول نظرتنا إلى شيء آخر ، وغالبا ما نحولها إلى أول رجل تصادفه عيوننا ،

حتى تخدع هذا الغريب ، وحتى تقتعه أننا لسنا من الصنف الذى يتبع النساء ..

على كل حال .. لو كان الدكتور حسن مريضاً نفسياً ، فلا بد أنه أكر وأخبث المرضى النفسانيين ، وأمهرهم فى إخفاء مرضه وأزمته .

وصب الدكتور حسن الشائى فى رشفة ، ثم استراح فى مقعده ورشف من قنجانته ، وقال كأنه حدد ساعة الصفر لبدء موضوعنا:

— لقد قالت لى زوجتى أنها ذهبت إليك فى العيادة .. ولم أظاهر بالدهشة لأنكر أنى أنا الذى أوصيتها بأن تقول له ، ولكنى قلت له :

— هذا صحيح ..

قال :

— أرجو ألا تصدق ما قالته لك عنى .. إنى أصبت فعلاً بنوبات شلل مؤقت ، ولكن أحدا لم يقل أنه نتيجة أزمة نفسية .. ولكنه ، كما أعلم ، وكما قال الأطباء ، نتيجة إرهاق .. وأنت تعلم مدى المسئوليات التى أحملها وترهقنى .. قلت :

— إنى أتصور كل من يشتغل بالمسائل المالية ، إنساناً مرهقاً ..

قال :

— الواقع انى تساءلت كثيراً عن السبب الذى دفع زوجتى إلى الذهاب إليك لتقول لك هذا الكلام .. ثم بدأت أشك فى أن تكون هى المصابة بحالة نفسية صورت لها هذه الأوهام ..

قلت في بساطة :

— هذا أمر سهل يمكن اكتشافه في جلسة أو جلستين ..

قال دون أن يحتد :

— لا .. لا أعتقد أنها في حاجة إلى طبيب .. الواقع انى مقتنع بأن أى انسان مثقف يستطيع أن يعالج نفسه من أزمته .. وزوجتى إنسانة مثقفة .. كل ما هنالك أنها محتاجة لوقت حتى تنتبه إلى تصرفاتها فتعالجها .. اليس كذلك ؟

قلت في هدوء :

— لا .. ليس كذلك ..

قال في تعجب مكبوت كأنه يخشى أن يطلق تعجبه :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— اعنى أن المريض النفسانى لا يستطيع أن يعالج

نفسه.

قال وحاجباه يرتفعان فوق نظارته :

— لماذا .. إن علم النفس قائم على أن يعالج المريض

نفسه بنفسه ..

قلت :

— إن صائد اللؤلؤ يصطاد اللؤلؤ بنفسه .. ولكنه

لا يستطيع أن يغوص إلى قاع المحيط إلا إذا استعان بخجر ثقيل يشده إلى القاع حيث يجد اللؤلؤ .. وبغير هذا الحجر لا يستطيع الصائد أن يصل إلى القاع .. طبقاً لنظرية الطفو التى وضعها أرشميدس .. وكذلك المريض النفسانى .. إنه فى حاجة إلى أن يصل إلى قاع نفسه ليكشف عقده و

يصل إلى قاعه النفسى إلا إذا استعان بحجر ثقيل .. هذا الحجر الثقيل هو الطبيب المتخصص .

وسكت الدكتور حسن كأنه يفكر فى كلامى .. وبدا لحظة كأنه مقتنع به .. ولكنه عاد وابتسم ابتسامة مغرورة ، وقال فى هدوء .. وكلماته البطيئة تصل إلى أذنى كرزاذ المطر :

— لست مقتنعا .. انك تستطيع أن تغوص فى نفسك مستعينا بكتاب فى علم النفس .. وثقافتك .. بدل أن تستعين بطبيب .. كل ما أرجوه عندما تأتى إليك زوجتى أن تقنعا بأنها ليست فى حاجة إلى طبيب .
قلت :

— إنى لا أستطيع أن أتخل عن مسئوليتى نحو كل من يلجأ إلى ..

قال وهو ينظر إلى :

— كان يجب أن أقدر أنك طبيب .. وأن هذه مهنتك ..

ونظرت إليه فى دهشة .. إنه يهيننى ..

واستطرد بسرعة فى كلمات أسرع مما تعودت منه :

— أنا أسف يا دكتور .. أسف فعلا .. لم أكن أقصد أى

شئ ..

وكان صادقاً فى أسفه .

وقلت وأنا ابتسم له لأريجه :

— إنك على حق .. إنى أدافع عن مهنتى ..

ووضع الدكتور حسن فنجان الشاي على المائدة ،

وانتصب واقفاً ، وقال وهو يمد يده لمصاقتى :

— أسف .. يجب أن أكون فى مكتبى الساعة الخامسة ..

قلت وأنا أقف لأصافح يده الممدودة :
 — شكرا لهذا اللقاء .. أرجو أن نلتقى مرة ثانية ..
 وضغطت على كلماتي ليفهم ما أقصده ..
 ولم يرد ..
 وابتعد وهو يجر وراءه عطره ..
 وعدت إلى مقعدي ، أراجع كل كلمة سمعتها وأتساءل ..
 أيهما الحالة التي تحتاج إلى علاج ؟
 هل هي حالة الدكتور حسن ..
 أم حالة حرم الدكتور حسن ..؟!



مرت ثلاثة أسابيع ولم يتصل بي الدكتور حسن ..
 ولا حرم الدكتور حسن .. لم تأت في الموعد الذي سبق
 أن حددته لها ..
 وطوال هذه الأسابيع الثلاثة وأنا في حيرة .. لم أكن
 حائرا في تحليل حالة الدكتور حسن .. بل كنت حائرا في
 اكتشاف من منهما المريض .. الدكتور حسن ، أم حرمه .
 لقد قال لي الدكتور حسن إن حرمه هي المريضة ..
 وقالت لي حرم الدكتور حسن إن زوجها هو المريض ..
 وقد يكون الدكتور حسن صادقا .. قد تكون حرمه هي
 المريضة .. هي التي تعاني حالة نفسية وفي حاجة إلى طبيب
 نفسي . وربما لم تستطع أن تواجه هذه الحقيقة ، وفي
 الوقت نفسه لم تستطع أن تقاومها .. فجاءت إلي بحجة أن
 زوجها مريض، وهي في الواقع تبحث عن علاج لنفسها ..
 وربما تمكنت منها هذه الحجة — حجة أن زوجها مريض —

حتى اقتنعت بها فعلا.. أصبحت حقيقة تسيطر على عقلها .. وكثير من المرضى النفسانيين يلجأون إلى هذه الطرق المتوتية لمواجهة الطبيب النفساني .

وأخذت أدرس التصرفات الظاهرية لحرم الدكتور حسن في المرتين اللتين رأيتها فيهما .. لا شيء في تصرفاتها يدل على حالة نفسية شاذة .. عيناها ثابتتان .. شفاتها ثابتتان .. حديثها متزن لا تناقض فيه .. حركاتها محترمة رشيقة تبلغ حد الكمال ..

ورغم ذلك فالمظهر الخارجى لا يدل على شيء .. إن كثيرا من الحالات تتميز بمظهر خارجى ثابت لا يدل على الاهتزاز الداخلى الذى تعانيه .. ثم إن هذا المظهر الخارجى الثابت قد يكون مجرد فترات استراحة بين أزمات نفسية عنيفة . ولكن ..

لعل الدكتور حسن هو المريض كما قالت لى زوجته .. وعدت أدرس المظهر الخارجى للدكتور حسن .. لا شيء أيضا يدل على اهتزازات نفسية إلا هذه النظرة الغريبة التى ضببطته يوجهها إلى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها عارية الساقين ، أعقبها بأن تحسس أنفه بأصابعه .. وقد تكون هذه النظرة فيها ما يفصح حالته النفسية ، كما أن تحسس الأنف له تفسير جنسى فى نظرية فرويد .. ولكن من المحتمل أيضا أن تكون هذه النظرة مجرد نظرة ألقى بها بلا تعمد .. ثم إن نظريات فرويد ليست دائما صحيحة على إطلاقها .

وفيما عدا ذلك فهو إنسان كامل . أما حالات الشلل

المؤقت التي تصيبه ، والتي اعترف لي بها ، فقد تكون نتيجة حالة نفسية فعلا ، ولكنها أيضا قد تكون نتيجة إرهاب شديد ..
وأنا حائر ..

ومرت الثلاثة أسابيع وأنا لازلت حائرا .. وفي حيرتى أتلف على أن يزورنى الدكتور حسن أو حرمه لأقف على سرهما .. بل إنى بدأت أسعى إليهما .. ذهبت ثلاث مرات إلى نادى الجزيرة لعلى ألتقى هناك بالدكتور حسن .. ولم ألتق به إلا مرة واحدة .. من بعيد .. وخيل لى أنه ابتسم لى ابتسامة صغيرة فيها كثير من السخرية والاستهتار .. كأنه يهزأ بى ، ثم أدار ظهره إلى الناحية التى أقف فيها .. واختفى ..
وذات مساء ..

دخل مساعدى ، بعد أن انتهيت من بحث آخر حالة عرضت علنى فى العيادة ، وقال لى وهو يبتسم ابتسامة مهذبة :
— حرم الدكتور حسن عزمى تنتظر .. وتصر على أن تراك !

وتوقفت لحظة .. لقد جاءت بلا موعد كما جاءت فى المرة الأولى.

وابتسمت فى راحة .. راحة من لهفتى ..
وقلت لمساعدى كأنى هائم فى عواطفى :
— دعها تدخل .. ووقفت انظر إلى الباب وأنا استعين بكل إرادتى لأخفى عنها حيرتى ولهفتى ..

ودخلت ..

إن ملامح جديدة تكسو وجهها . ومظهر السيدة الكاملة التي تثير احترامى وإعجابى قد تغير .. عيناها مضطربتان .. شفثاها ذابلتان .. وجهها الخالى من الاصباغ يبدو فى لون الليمون .. وحركتها الرشيقة المتزنة تبدو مرتعشة كأنها لم تعد تستطيع أن تسيطر عليها ..

وصافحتنى بلمسة سريعة من يدها ، ثم جلست - دون أن ادعوها - على المقعد الكبير الموضوع بجانب مكتبى ، وقالت وهى تتنفس بسرعة :

— يبدو أنى أخطأت فى الالتجاء إليك .. من يومها وحالة زوجى تسوء يوما عن يوم .. وقد ترددت كثيرا قبل أن أعود إليك .. ولكنى لم أجد طريقا آخر .. لقد وعدتني أن تعالجه إذا ساءت حالته .. وقد ساءت .. ولكنه لا يزال يرفض أن يأتى إليك .. فتصرف .. حقق وعدك لى .. إنها مسئوليتك .. أنت الذى أمرتني بأن أبلغه بزيارتى لك ..

وقلت فى هدوء وأنا ابتسم لعلها تهدأ معى :

— لنبدأ من الأول .. ماذا حدث ؟

قالت فى عصبية :

— حدث الكثير .. و ..

وقبل أن تستطرد ، فتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجائر مذهبة ، وأشعلت لنفسها سيجارة شدت منها نفسا عميقا كأنها تشد كل عمرها ، ثم قالت وسحب الدخان تنطلق من فمها :

— لقد جن .. أو لعله يحاول أن يجننى !

قلت وأنا أنظر في وجهها كأني أحاول أن أنفذ إلى عقلها :
— كيف ؟

قالت وهي ترتدى بظهرها على مسند المقعد ، وسيجارتها معلقة أمام عينيها :

— لقد كان طبيعيا .. إلى أن زرتك في المرة الثانية .. أو على الأقل لم تزدد حالته سوءا .. وبعد أن علم بهذه الزيارة .. ازداد صموتا ، حتى بدا كأنه يعيش وحده .. كأني لست معه .. وزاد عدد الساعات التي يقرأ فيها .. وأصبح يدخل غرفة مكتبه ، ويغلق بابها عليه بالمفتاح ، على غير عادته .. ويختفي فيها ساعات .. ثم عاد يوما من الخارج وقال لي في كلمات قليلة أنه التقى بك ، وأنه استطاع أن يقنعك بأنه ليس في حاجة إلى طبيب نفساني .. ورغم إنى كنت جزءة من التغير الذي يطرأ عليه ، فإنني اطمأنتت عندما علمت أنك اقتنعت بأنه ليس في حاجة إليك .. ثم بعد ذلك لم يعد يجلس في غرفة مكتبه طويلا ويفلق على نفسه الباب .. أصبح يجلس معي كثيرا .. كلما عاد من عمله جلس معي إلى أن يعود إلى عمله .. وقلت لنفسى « خير .. » وفي إحدى الأمسيات كنا جالسين معا في حجرة ملحقة بحجرة النوم ، كل منا يقرأ في كتاب .. وفجأة سمعته يصرخ في وجهى :

— لماذا لا تردين عليّ ؟!

وذعرت لصرخته وقلت له في دهشة :

— إنك لم تتكلم ..

قال وهو لا يزال محتدا :

— إنى أكلّمك منذ عشر دقائق .. لقد كنت أحدثك عن

قطعة أرض أفكر في شرائها !
قلت وأنا انظر في وجهه :
— إننى لم أسمعك .. إنك لم تتكلم ..
وهذا وابتسم لى فى حنان وقال وهو يربت على يدي :
— ربما كنت فى حاجة إلى علاج أذنك .. سأتصل غدا
بالدكتور عبد السلام البربرى ..
قلت وقد بدأت أثور :
— لا شىء فى أذنى .. إنك لم تتكلم .. إننى واثقة من أنك
لم تتكلم ..
وابتسم ابتسامة لم استرح لها ، وقال :
— حاضر .. لم أتكلم .. سأقول كلامى مرة أخرى ..
وبدا يحدثنى عن قطعة أرض ينوى شراءها .. ولكنه كان
يتحدث بصوت عال .. عال جدا .. كأنى طرشاء .. فصرخت
فيه :
— لماذا ترفع صوتك ؟
وقال فى هدوء :
— لتسمعينى :
قلت صارخة :
— إننى أستطيع أن أسمعك دون أن ترفع صوتك إلى هذا
الحد ..
قال وهو يعود ويربت على يدي .. ولأول مرة فى حياتى
تقشعر يدي من يده :
— لا تغضبى .. لن أتكلم ..
وعاد يقرأ فى كتابه .. ولكنه بعد ذلك أصبح كلما كلمنى ،

يرفع صوته جدا .. فإذا ثرت في وجهه سكت عن الكلام .. وظل على ذلك أياما طويلة .. يصر على أنى طرشاء .. ويصر على أن يرفع صوته إلى حد الصراخ كلما كلمنى .. حتى كدت أجنّ .. أصبحت أتخيل أن كل من يتحدث إلى يرفع صوته إلى هذا الحد .. فإذا حدثنى السفرجى .. صرخت فيه : لا ترفع صوتك .. إننى أستطيع أن أسمعك بلا صراخ .. وتبدو الدهشة في عيني السفرجى والسائق .. وصديقاتى .. حتى ابنى الصغير أصبح يخيل إلى أنه يرفع صوته .. حتى بدأت اقتنع إنى طرشاء فعلا .. فذهبت إلى الدكتور عبدالسلام البربرى .. وكشف على أذننى .. أنهما سليمتان .. وحدثنى الدكتور عبد السلام .. وسألته : هل ترفع صوتك وأنت تحدثنى .. قال : « لا .. » قلت : « إننى أسمعك جيدا .. » قال : « إن حاسة السمع عندك قوية ، أقوى من الأذن العادية .. » وأجرى على أذننى عدة تجارب تبين منها فعلا أن سمعى سليم قوى .. وعدت إلى زوجى لأبلغه ما قال لى الدكتور ، فرد على بصوت عال .. عال جدا .. وصرخت وأنا أكاد أجنّ : — لماذا تتحدث بصوت عال .. قلت لك إن الدكتور أكد أن أذننى سليمتان ؟

وقال لى وهو يبتسم ابتسامة لرجة ونظرات خبيثة في عينيه :

— ولكنى أتكلم بصوت عادى .. صوت خفيض !
وتنبهت إلى الحقيقة .. إنه يحاول أن يجننى .. لاشك أنه يحاول أن يجننى .. ولذلك جئت إليك ، لتحاول أن تنقذنى ، إذا لم تستطع أن تنقذه ..

وسكتت ..

ومدت يدا مرتعشة ، وأخرجت سيجارة ثانية من العلبة المذهبة .. وارتعش عود الثقاب بين أصابعها ، فألقى على وجهها ظلالا متحركة كأنها خيالاتها تنطلق من صدرها .. وأنا حائر أمامها ..

أحاول جهدى أن أخفى حيرتى ..
هل أصدقها ؟

لو صدقتها .. فالدكتور حسن هو أخبث أنواع المرضى النفسانيين .. إنه مجنون يعلم بجنونه ويحاول أن يدافع عنه .. ويلجأ إلى أعقد الأساليب لحماية هذا الجنون .. حمايته من أن يشفى منه .. وإذا لم أصدقها فهى نفسها التى تحاول أن تحمى جنونها .
وقررت أن أصدقها ..

إن نقطة البداية عند كل طبيب نفسانى هى أن يصدق مريضه ..

وقلت وأنا ألحها تميل برأسها وتسندها فوق كفها ، كأنها لم تعد تستطيع أن تحملها ، وسيجارتها ترتعش بين أصابعها :

— هذا محتمل .. ربما أراد أن ينفى أنه مريض نفسانيا ، بأن يقنعك أنك أنت المريضة .

قالت فى حدة :

— وما العمل .. كيف تنقذه ، وتنقذنى منه ..

قلت فى هدوء :

— حدثينى عن نفسك ..

واتسعت عيناها كأنها ذعرت .. وقالت وهى تخط على حافة المكتب بكفها ، وصوتها أكثر حدة :

— أتحاول أن تحللنى ؟

قلت وأنا محتفظ بهدوئى :

لا .. إنى أحاول أن أحلل زوجك من خلاك ..

وتعقد حاجبها ، وضافت عيناها ، ومدت عنقها نحوى وهى تنظر إلى نظرة فاحصة وقالت فى صوت يرتعش من الغضب :

— قل لى .. هل تشك أنت أيضا فى أنى قد أكون مجنونة ..

قلت :

— لا .. ورغم ذلك ، ولكى أكون صادقا معك ، فأنا لا أكون رأيا مقدما ، بل أصدق كل كلمة تقولونها .. ليس من حقى أن أشك فى كلامك .. إلا إذا بدأت أنت تشكين فيه . وعادت تميل بجسدها على ظهر المقعد ، وصمتت .. صمتت طويلا ..

وأنا أحاول أن أدرسها أكثر . أنها تخاف من أن أحللها .. وهى تشك فى أنى قد اعتبرها مجنونة .. ومجرد شكها قد يكون دليلا على أنها مريضة فعلا ، ودليلا على أنها تخشى أن تنكشف خطتها .. وقد يكون أيضا مجرد شك طبيعى نتيجة للحالة العصبية التى أوصلها إليها زوجها .. وقالت فجأة وهى تنتظر أمامها نظرات ساهمة :

— ماذا تريد أن تعرف عنى ؟

قلت وأنا ابتسم شاكرا لها استجابتها لى :

— أى شىء .. أو كل شىء ! ..

قالت وهى لا تنتظر إلى :

— من أين تريدنى أن أبدا ؟

قلت :

— كما تشائين ..

وانحنى إلى الإمام لتطفىء سيجارتها فى المنفضة ..
ضغطتها بعنف كأنها تطفىء نارا فى صدرها .. كأنها تقتل
حيوانا صغيرا يجرى تحت ثيابها .. ثم ارتمت على ظهر
المقعد .. وتنهدت كأنها تشد ذكرياتها من بئر عميقة ..
وقالت :

— أمى ماتت وأنا فى العاشرة من عمرى .. كنت أيامها
مازال فى المدرسة الإنجليزية .. وجاءت عمى لتعيش معنا ..
بدلا من أمى .. وكان هناك فارق كبير بين أمى وعمى ..
وأيضا بين عمى وأبى .. كانت أمى وأبى متحررين
مثقفين .. يحبان القراءة ، والموسيقى ، ويتناقشان طويلا فى
القصص التى يقرأنها .. وقد ربيانى لأكون مثلها ..
متحررة .. مثقفة .. كنت أرقص الباليه وأنا فى السادسة من
عمرى .. وعندما أصبحت فى الثامنة أجدت العزف على
البيانو .. ولم يكن أحدهما ينهرنى .. كلاهما يدللنى .. ولكن
عمى كانت شيئا آخر .. إنها أرملة محافظة تؤمن بالتربية
القديمة .. لقد أطالت ثيابى إلى ما تحت ركبتى منذ الشهر
الأول الذى تولت فيه تربيته .. وحرمتنى من ركوب
البسكليت .. وأصبح يومى كله عبارة عن مجموعة نصائح

لا تفعل ذلك .. عيب .. لا تفعل .. هذا خطأ .. لا تفعل ..
هذه قضية .. لا تفعل .. و .. و .. ولم احتمل طويلا ..
بدأت اتحدى عمتى .. وأصبحت اتحداها علنا .. وانتصر لي
والدى .. وقف بجانبى .. وهزمت عمتى .. وعدت حرة ..
اذهب إلى المدرسة .. وارقص الباليه .. والعب التنس ..
واذهب إلى الحفلات .. أحيانا اذهب وحدى .. عشت حياة
سعيدة .. إلى أن تزوجت ..

وسكنت كأنها انتهت من قصتها ..
وقلت كأننا لا زلنا في البداية :

— ألم يكن في حياتك رجل ، قبل الزواج !
قالت في صراحة :

— كثيرون .. أصدقاء كثيرون .. ولكننى أحببت مرة ..
مرة واحدة ..
قلت :

هل دام هذا الحب طويلا ؟
قالت وهى تتنهد :

— ثلاث سنوات .. لقد كنا مخطوبين تقريبا ..
قلت كائنى الاحقها :

— ولماذا لم تتزوجا ؟

قالت وهى تبسم ابتسامة صغيرة كأنها تترحم بها على
حبها :

— انتهى الحب ..

قلت بسرعة :

— كيف انتهى ؟

ونظرت إلى في دهشة كأنها تتعجب لملاحقتي لها بالأسئلة
ثم أرخت عينيها وقالت :

— لا أدري كيف انتهى .. ربما لأنى أحسست يوما أنه
أهان كرامتى .. جرح كبريائى ..

قلت :

— وهل كان زوجك يعلم بهذا الحب قبل أن يطلبك
للزواج ؟

قالت في بساطة :

— طبعاً .. كل الناس كانوا يعرفون قصة حبى .. ثم أنى
رويتها لزوجى بتفاصيلها قبل أن تتزوج .

قلت :

— كل التفاصيل ؟

قالت وهى تنظر إلى بوز حداثها :

— تقريبا .

قلت :

— ألا تعتقدين أن لهذه القصة أثرا في حياتكما الزوجية ؟

قالت في تأكيد :

— إن الدكتور حسن رجل مثقف متحرر .. إنه يؤمن

بحق البنت في الحرية .. وفي الحب .. ولا يمكن أن يؤثر فيه
ماضى فتاة.. إنه ليس فلاحا متزمتا .. لقد عاش في أوروبا .

قلت وأنا أفحص وجهها :

— هل أحببت زوجك قبل الزواج ..

قالت ورموشها ترتعش فوق عينيها :

— لا .. ولكن كان يمكن أن أحبه .. لقد كنت معجبة به

وبشخصيته إلى حد أن اقترب إعجابى من الحب .. ولكن طبيعته الصامته وقفت كالحائط بينى وبينه .. وقفت بينى وبين أن أحبه .

قلت :

— هل يعلم زوجك أنك لا تحبينه؟ قالت وقد بدأت

تضيق بأستلتي :

— لا أدرى .. إننا لم نناقش هذا الموضوع .. وهو كما

قلت لك ، لا يفصح عن نفسه أبدا .. ولكن الحب ليس كل شئ فى الحياة الزوجية .. هناك التفاهم ، والاحترام المتبادل، والذوق المشترك .. وأنا متفاهمة معه .. واحترمه .. واتفق معه فى ذوقه .

قلت :

— وهل يحبك هو ؟

قالت بلا تردد :

— نعم ..

قلت :

— كيف تأكدت أنه يحبك ، وأنت تقولين إنه لا يفصح

عن عواطفه..

قالت :

— إن المرأة تستطيع دائما أن تعرف الرجل الذى يحبها،

دون حاجة إلى إفصاح .

قلت :

— ألم تختلفا أبدا .. ألم تتشاجرا ؟

وسكتت قليلا تحاول أن تتذكر ، ثم قالت وهى تمط

شفتيها باحتقار :

— مرة .. كنت أريده أن يستغنى عن سائقه .. ورفض ..
قلت :

— لماذا أردت أن يستغنى عن سائقه الخاص ؟
قالت في تأفف :

— لأنه إنسان غير مريح .. نظراته وقحة .. تقرزنى ..
وكان يخیل إلى أحيانا أنه لا يحترمنى .. بل لا يحترم زوجى
أيضا .
قلت :

— ولماذا رفض أن يستغنى عنه ؟
قالت وهى تزداد امتعاضا :

— بحجة أنه بقى معه طويلا .. أكثر من عشر سنوات ..
قلت :
— وكيف احتملت بقاء هذا السائق ؟
قالت :

— الحقيقة أنى لا احتمله إلى الآن .. ولكنى عودت نفسى
عليه .. اعتبرته العيب الوحيد فى زوجى .. ويخیل إلى أحيانا
أنه يعرف عن زوجى أكثر مما أعرف أنا .. كأن هناك سرا
بينهما .. وهو يصحبه دائما .. إلى الإسكندرية .. وأخذة مرة
معه إلى أوروبا .
قلت :

— أى سر يمكن أن يكون بين زوجك وسائق السيارة ؟
قالت :

— لا أدرى .. إنى لا أحب أن أجرى وراء الأسرار ..

قلت :

— حتى هذا السر ؟

قالت :

— الحقيقة أنى لم أصدق أن يكون بين زوجى وسائقه

سر..

قلت :

— ألم تتساءلى لماذا يغضبك من أجل سائقه ؟

قالت وهى تتنفس أنفاس الضيق :

— إنك تعلق أهمية كبيرة على هذا الموضوع .. إن

شجارنا حول هذا الموضوع لم يستغرق سوى دقائق ..

كلمة ورد غطاها .. وقد تأثرت يومها .. ثم انتهى كل شيء

فى اليوم التالى ..

قلت وأنا ابتسم معذرا لها عن إلحاحي :

— آسف .. ألم تختلفا حول موضوع آخر ..

وقالت بسرعة كأنها تريد أن تنتهى :

— لا ..

وقبل أن أتكلم استطردت كأنها تذكرت شيئا آخر :

— نعم .. لقد تشاجرنا مرة أخرى .. خناقة كبيرة ..

كانت إحدى قريباتى .. ابنة عمتى قد اضطرت للسفر فجأة ،

فأرسلت ابنتها لتقضى الليلة عندنا .. وأذكر يومها أنه قال

إنه لا يوافق أن تترك أم ابنتها وتسافر .. وأصر على تذهب

الفتاة وتبيت عند عمتى فى بيت أبى .. ولكنى لم أقتنع

بحجته .. وصممت أن تبقى الفتاة .. فما كان منه إلا أن

خرج وقضى ليلته فى فندق شبرد .

وقلت في اهتمام :

— كم كان عمر الفتاة ؟

وقالت بلا اهتمام :

— كانت في الثالثة عشرة .. أو الرابعة عشرة من عمرها .

قلت بمزيد من الاهتمام وأنا اضغط على القلم الذي
أسجل به حديثها في مذكرتي الطبية :

— ومتى حدث هذا ؟

قالت في بساطة :

— منذ ثلاث سنوات .. تقريبا !

قلت كأني اكتشفت شيئا :

— لقد قلت لى في زيارتك السابقة إن نوبات الشلل بدأت
تصيبه منذ أربع سنوات .

قالت في دهشة :

— نعم .. ولكن ما العلاقة بين نوبات الشلل وقصة
خلافنا حول هذه الفتاة ؟

قلت :

— لا أدرى بعد .. صدقيني أنى لا أدرى ..

ونظرت إلى كأنها لا تصدقنى .. ثم قالت :

— ألا يكفي هذا .. اليوم ؟

قلت وأنا ابتسم لها ابتسامة كبيرة :

— لقد آخرتني لأول مرة عن موعد عشائى ، فمن حقى

أن أسألك سؤالا آخر .. اعتبريه عتابا لك لأصارك على أن
تأتى إلى العيادة بلا موعد .

وابتسمت قائلة :

— إنى مضطرة أن استسلم لك ..

قلت :

— إنى أريدك أن تتذكرى جيدا الايام التى سبقت إصابة زوجك بنوبة الشلل الأولى ؟

قالت وهى تجهد ذاكرتها وتعصر جبينها بأصابعها :

— اذكر أنه كان فى الإسكندرية .. قضى هناك أربعة أيام أو خمسة .. ثم عاد .. عاد أكثر صمتا عن عادته .. وأكثر تجهما .. وقد تركته يومين وهو متجهم .. تبدو التعاسة على وجهه .. ثم سألته عن سبب تجهمه .. وأجابنى فى كلمات قصيرة بأن الحالة فى البورصة مرتبكة .. ولم اندهش فقد كنت اعلم أن السبب لا بد أن يكون متعلقا بعمله .. ومضى يومان آخران وهو لا يزال متجهما .. ثم أصيب بنوبة الشلل .

قلت :

— وهل كانت الحالة فى البورصة مرتبكة فعلا ؟

قالت :

— لا أدرى .. لم اهتم بالسؤال .

قلت :

— ومتى أصابته نوبة الشلل الثانية ؟

قالت :

— بعد عام ، أو عام وبضعة شهور ..

قلت :

— وماذا حدث قبل أن تصيبه ؟

قالت :

- لقد كان في الإسكندرية أيضا .. و ..
وتوقفت كأنها دهشت ، ثم قالت :
- غريبة .. إن النوبة الثالثة أصابته أيضا بعد أن عاد
من الإسكندرية .. أليس هذا غريبا ؟!
- قلت وأنا أطوي مذكراتي الطبية :
- فعلا .. غريبة ..
قالت :
- ماذا يعني هذا ؟
قلت :
- ألم تنتبهى من قبل إلى أن النوبة تصيبه دائما بعد
عودته من الاسكندرية ؟
- قالت :
- لا .. ولكن ماذا يعنى هذا .. ربما كانت الرطوبة
لا تناسب صحته !
- قلت :
- لا أدري ولكنى استبعد أن تكون الرطوبة هي
السبب ؟
- قالت وهي تلتقط حقيبتها :
- ولكن .. لابد أن يكون هناك تفسير ..
قلت :
- هذا ما نسعى إليه .. إننا لازلنا في البداية ..
- قالت وهي تقوم واقفة :
- كيف نسعى إليه ؟
قلت :

— بالصبر .. لقد قلت لك إن المهبة الرئيسية في أطباء النفس هي الصبر .

ومددت يدي أصافحها وأنا انظر إليها وابتسامتي في عيني .. أنها الآن سيدة كاملة .. عيناها ثابتتان .. شفاتها ثابتتان .. بشرتها مشدودة ملونة بدماء الصحة .. حركاتها رشيقة متزنة .. لقد عادت السيدة التي تثير احترامي وإعجابي .

وقالت وهي تصافحني في حرارة :

— هل أقول لزوجي أنني جئت لزيارتك ؟
قلت بسرعة وتأکید :

— لا .. لا .. لا تقولي له شيئاً .. أرجوك .

قالت وهي تبتسم ابتسامة كبيرة :

— أتدرى يا دكتور .. إنني الآن أحسن حالا .. لقد هدأت بعد أيام طويلة من العذاب .
قلت :

— أعرف هذا ..

قالت في دهشة رقيقة :

— كيف عرفت ؟

قلت :

— إنك لم تدخني ولا سيجارة بعد سيجارتك الثانية ..

قالت :

— يظهر إنني كنت في حاجة إلى تحليل نفسي ..

قلت :

— كلنا في حاجة إلى تحليل نفسي ..

قالت وهي تبضحك ضحكة صغيرة رنينها هادىء :

— حتى أنت ؟

قلت :

— إن نفوس الناس ، تشغلنى عن نفسى ..

قالت وهي تخطو نحو الباب :

— هل أعود إليك ؟

قلت :

— لحظة واحدة ..

وقلبت فى دفتر مواعيدى ثم قلت لها :

— بعد أسبوع .. الساعة السابعة مساء .. إذا شعرت

بحاجتك إلى .. يجب أن تشعرى أولا بحاجتك إلى .. وإذا لم

تشعرى بحاجتك إلى أتصل بى فى التليفون .. فربما احتجت

إليك أنا ..

قالت وابتسامتها المحترمة بين شفقتها :

— وإذا احتجت إليك قبل ذلك ؟

قلت ضاحكا :

— تعالى كعادتك ، بعد موعد انتهاء العيادة !

وفتحت لها الباب ..

وهمت بالخروج .. ولكنها وقفت مترددة .. ثم التفتت إلى

والاضطراب بدأ يمد بصماته إلى عينيها .. وقالت فى صوت

متردد :

— قل لى يا دكتور .. هل كنت تحدثنى بصوت عال ؟

قلت :

— لا ..

قالت :

— لا تكذب على ..

قلت :

— إنى لا أكذب عليك؟

قالت فى حيرة :

— لقد مرت لحظات خيل إلى فيها أنك كنت تحدثنى

بصوت عال .

قلت وقد أحسست أنها سحبت منى هدوء عقل :

— تقى بى .. أنى لا أكذب عليك !

ونظرت إلى طويلا كأنها تبحث عن الحقيقة فى وجهى ..

حقيقتها الضائعة منها ..

وخرجت ..



بعد يومين اتصل بى الدكتور حسين تليفونيا ، فى بيتى ،

وقت الغداء ، وقال لى بصوته الهادى البطيء :

— هل أستطيع أن أقابلك ؟

وقلت وأنا أتعمد أن أتكلم بلهجة رسمية جافة :

— أرجو أن تتصل بى فى العيادة حتى أحدد لك موعدا

بعد مراجعة قائمة المواعيد ..

وصمت قليلا كأنه فوجئ بلهجتى الجديدة ، ثم قال فى

صوت متردد أكثر بطئا :

إنى أفضل أن أراك خارج العيادة فى نادى الجزيرة ..

كالمرّة السابقة ..

قلت محتفظا بلهجتى الجديدة :

— أرجوك يا دكتور حسن .. الأفضل أن نتقابل فى

العيادة ، مادمت تلقاني بصفتي طبيباً !

قال :

— ولكنها مسألة ليست خاصة بى ..

قلت :

— ولو .. أفضل أن نبحثها فى العيادة .. أنى هناك أكون

أقدر من الناحية النفسية على مزاولة مهنتى ..

قال وصوته يعبر عن ضيقه :

— ولكنى أريد أن ألك اليوم .. إنها حالة عاجلة ..

قلت :

— إنى أستطيع أن أحدد لك موعداً اليوم ..

فقال فى صوت خفيض كأنه يعلن استسلامه :

— متى ؟

قلت :

— فى الساعة الخامسة .. قبل موعد بدء العيادة ..

قال . كأنه يتنهد :

— شكراً ..

والقى السماعه بسرعة ..

وقد تعمدت أن يكون لقائنا فى العيادة ، حتى أجعله

يعترف بينه وبين نفسه بحاجته إلى .. وحتى أحطم جزءاً من

غروره .. ثم إن المريض يكون عادة أكثر استسلاماً للطبيب

داخل العيادة ، منه عندما يلقاه خارج العيادة ، إن شخصية

الطبيب .. كطبيب .. تضعف خارج عيادته .

ورغم ذلك فعندما جاء إلى العيادة ، جاء يحوطه غروره ،

وثقته بنفسه ، وابتسامته الصغيرة تملأ شفثيه ، هذه

الابتسامه التى يبدو أنه يسخر بها منى .. ويتحدانى ..

لقد استطاع في الفترة التي انقضت بعد حديثنا التليفوني أن يستعيد سيطرته على نفسه .. استطاع أن يؤهل نفسه لدخول العيادة وهو بكامل قواه .

وقال وهو يجلس على المقعد العريض ، ويضع ساقيه الطويلتين ساقا على ساق :

— إنها زوجتي .. لقد بدت منها تصرفات أزعجتني .. وأرجح أن هذه التصرفات هي انعكاسات حالة نفسية تعانيها .. والواقع أنني فكرت في أن أتولى علاجها بنفسى .. ولكنى قررت أن أستعين بك ..

قلت وأنا جامد الوجه :

— إنى في الخدمة ..

قال وكأنه يحاول تحطيم كبريائى :

— لقد قررت أن أستعين بك لتحمل عنى المسؤولية .. إنها مسئولية يجب أن يحملها أخصائى معروف .

وأحسست بعينيّه تبحّثان في وجهى كأنه يحاول أن يقرأ أفكارى ، وأنا محتفظ بجمود وجهى حتى لا يقرأ من خلاله شيئا ، وقلت :

— ما هو نوع التصرفات التي بدت منها ؟

قال :

— تصرفات عجيبة .. عندما أتكلم بصوتى العادى لا تسمعنى .. فإذا رفعت صوتى انزعجت .. وأمرتنى أن أتكلم بصوت خفيض .. ثم أصبح يخيل إليها أن كل الناس يتحدثون بصوت عال .. وقد طلبت منها أن تذهب إلى طبيب مختص في الأذن .. وذهبت فعلا إلى طبيب .. فوجد أذنيها

سليمتين .. ولكنها لا تزال تعتقد أن كل الناس يحدثونها بصوت عال .. إنها حالة نفسية بلا شك .
قلت :

— متى بدأت هذه الحالة ؟

قال :

— أخيرا .. منذ أسبوعين أو ثلاثة .. ولكنها منذ مدة طويلة وهى تعتقد أنني فى حاجة إلى طبيب نفسانى .. وكانت تلح على دائما أن أعرض نفسى عليك .. ثم جاءت إليك لتعرض عليك حالتى .. واعتقد أنها كانت فى كل ذلك تعبر عن حاجة فى نفسها للذهاب إلى طبيب نفسانى .. حاجتها هى لا حاجتى أنا .. ثم بعد أن علمت أنني قابلتك وأنت اقتنعت بأنى لست فى حاجة لأعرض نفسى عليك .. بدأت حاجتها إلى الطبيب النفسانى تنعكس فى تصرفات أخرى .. وفى ظواهر شاذة ..

قلت فى برود :

— هذا محتمل ..

قال فى تحد :

— هذا أكثر من محتمل .. إنه واقع !

قلت :

— التحليل النفسى يمكن أن يكون واقعا .. إنه استنتاج ، أما « الواقع » فهو النتيجة التى ينتهى إليها التحليل النفسى .. والتى تثبت صحة التحليل أو عدم صحته .

وسكت كأنه تلقى درسا ، لم يكن يحب أن يتلقاه منى .

وتركته يسكت .. لم أحاول أن أجره إلى الكلام .

وبعد قليل رفع رأسه إلى : وقال :

— ماذا تقترح ؟

قلت في هدوء :

— اقترح أن تحدثني عنها ..

قال وهو يفحصني بعينين ملؤهما الشك :

— أتريد أن أحدثك عنها ، أم أحدثك عن نفسي ؟

قلت :

— إن حديثك عن نفسك ، لا بد أن يكون حديثا عنها ..

ونظر إلى وابتهامته الساخرة تتسع فوق شفتيه ، وقال :

— هل تريد أن أستلقى على الأريكة ، كما يفعل بقية

مرضاك ؟

قلت في هدوء :

— ليس هذا مهما ..

قال يتحدثني :

— لا .. سأستلقى على الأريكة .. أنها تساعد على

استدراج الإنسان في الكلام .. أليس كذلك ؟

ثم قام من تلقاء نفسه وألقى بنفسه على الأريكة .. وكان

هذا التصرف يكفي لأن اقتنع أنه يعاني حالة نفسية فعلا ..

وأنه في حاجة إلى .. وفي حاجة إلى الأريكة .. وأن هذا

التحدي الذي يبدو في حديثه ، ليس تحديا لي ، أنه تحد

لنفسه ..

وقال وهو يمد بساقيه الطويلتين فوق الأريكة :

— أحذرك يا دكتور .. إن هناك كثيرا من الأسرار ..

أسرارى وأسرار زوجتى .. سأخفيها عنك .. إنى اعلم كل
أسرارى .. فلست فى حاجة إلى مساعدتك لاكتشافها وجذبها
من عقلى الباطن .. إنى اعلم كل ما فى عقلى الباطن .. كما
اعلم كل ما فى عقلى الظاهر .

قلت وأنا ابتسم واجلس على مقعد خلف رأسه ، ونوتة
المذكرات بين يدى :

— لا يكفى أن تعلم كل أسرارك .. المهم أن تعرف أى سر
منها هو الذى يسبب لك العقدة النفسية .. وهذا هو
الصعب ..

قال :

— هذا إذا كنت أعانى من عقدة نفسية !
ثم مد أصابعه وضم سترته فوق صدره ، ووضع يديه
فوق بطنه ، وقال فى صوت ساخر :
— من أين تريدنى أن أبدأ ؟

قلت :

— كما تشاء .

قال :

— العادة جرت بأن أبدأ بأيام طفولتى ؟

قلت :

— إذا أردت .. فإن طفولتك ستؤدى بنا حتما إلى ذكر
زوجتك .

وقد قلت هذا لأقنعه إنى لا أحاول تحليله هو شخصيا ..
وأن كل ما أريده هو أن أعرف حالة زوجته .
وسكت برهة .. واغمض عينيه تحت زجاج نظارته كأنه

يحاول أن يرى بهما داخل نفسه ، ثم بدأ يتكلم بصوت بطيء .. بطيء جدا .. ولم يتكلم بلهجة ساخرة .. كانت لهجته جادة حزينة ، كأنه يترحم بها على نفسه :

— كان أبى عالما من علماء الأزهر .. تولى منصب القضاء الشرعى .. ثم تنقل فى مختلف المناصب الدينية إلى أن أصبح عضوا فى هيئة كبار العلماء .. وكان محافظا فى حياته .. حريصا كل الحرص على التقاليد القديمة .. لا يتهاون فيها أبدا .. ولا اذكر أن أمى كشفت وجهها أبدا على غريب .. بل كان لا يسمح لها بأن تقابل ابن عمها عندما يأتى لزيارتنا ، إلا وهى ملثمة الوجه ، وشالها مسدل فوق رأسها ، ليخفى شعرها ، ولا تصافحه إلا ويدها ملتفة بطرف الشال .. وأختى حجزت فى البيت منذ أن بلغت الثانية عشرة .. حرم عليها الذهاب إلى المدرسة .. وكلنا نؤدى فروض الدين بتقديس وإيمان .. وكلنا .. حتى أمى .. نحفظ القرآن كله .. ونصلى ونصوم .. وقد نشأت فى هذه البيئة مؤمنا بها .. كنت أغار على أمى وأختى بعقلية هذه البيئة .. واذكر مرة أنى أثرت ثورة فى البيت لأن البواب تجرأ وصعد إلى الشقة التى نساكنها ورأى أمى وهى بثياب البيت .. واذكر مرة أنى ضربت أختى لأنها أطلت من الشباك ، وكان ابن الجيران فى الشباك المقابل .. وكان أبى يعجب بى وأنا أثور هذه الثورات .. كنت أرى إعجابه فى عينيه .. وفى ابتسامته الوقورة التى يستمتع بها إلى .. وقد انتهت هذه الثورات إلى أن أمى وأختى أصبحتا تخافانى قدر ما تخافان أبى .. ربما أكثر .

وسكت قليلا وهو يتسم ابتسامة صغيرة ، ثم استطرد قائلا وابتسامته تتسع :

— كان الشيء الوحيد الذى يدل على تحرر عقلية أبى ، هو أنه أدخلنى المدارس المدنية .. لم يلحقنى بالأزهر .. وكانت أمنيته أن أكون طبيبا لا عالما فى هيئة كبار العلماء .. ومضيت فى دراستى الابتدائية .. والثانوية .. وكنت دائما الأول على زملائى .. وكنت مغرما بالقراءة .. قرأت كثيرا .. وانتهيت من قراءة الكتب القديمة التى وجدتھا فى مكتبة أبى .. وبدأت أقرأ الكتب الأجنبية القديمة والحديثة .. بدأت أرى الحياة من زاوية أخرى .. ثم بدأت أناقش البيئة التى أعيش فيها .. واهتز إيمانى بها .. لم أعد أغار على أمى ولا على أختى .. لماذا أغار عليهما .. لماذا اشترك فى حرمانهما من حق الحياة .. إن الحياة أوسع من البيت .. وأوسع مما نراه من الشباك الذى تقف فيه أختى .. واستغرقت هذه المناقشة كل اهتمامى فى فترة من فترات عمرى .. ووصل بى الأمر إلى حد محاولة إخراج أمى وأختى من هذه البيئة .. من هذه العقلية التى تحكمهما .. ولكن حالتهما كان ميؤوسا منها .. أنهما راضيتان سعيدتان بهذا الركن الضيق من الحياة .. رضاء الجاهل وسعادته .. فتركتهما وشأنهما .. وانطلقت وحدى .. اكتشف الآراء الجديدة . والمجتمعات الجديدة .. وأفهم الحياة فهما جديدا .. وفى خلال ذلك أهملت الصلاة .. وأهملت الصوم أيضا .. وكنت أهرب من السدى حتى لا يكشف إهمالى لقروض الدين .. وكنت أكذب عليه أحيانا عندما يسألنى .. هل أديت الصلاة .. ولم أكن أكذب عليه

خوفا منه ، ولكن خوفا من جرح إحساسه الدينى .. ثم لم أعد أكلف نفسى ، بعد أن دخلت الجامعة ، مشقة الهروب منه أو الكذب عليه .. ولم يعد هو أيضا يحاسبنى على تأدية فروض الدين.. كان قد شاخ ، وضعف ، واعتبرنى رجلا مسئولا عن دينى.. وقد مرت على ترة اهتز خلالها إيمانى بأالله .. شملت ثورتى الفكرية وجود الله .. واعتقدت أنى لست فى حاجة إلى الإيمان به .. وقد عشت هذه الفترة عندما أقمت فى إنجلترا لأعد للدكتوراه.. ولكنى عدت إلى الإيمان بأالله .. عدت لأنى شعرت بأنى فى حاجة نفسية لهذا الإيمان.. إنه إيمان مريح ، حتى لو شك فيه العقل .

وسكت الدكتور حسن ، وهو يبلى شفثيه بلسانه كأنه يغسلهما من آثار الكلام .. ومد يده ونزع نظارته من فوق عينيه ، وضغط بأصابعه على أرنبة أنفه ، ثم قال :

— هذا هو أهم ما فى حياتى .. أهم ما فيها هو التطورات الذهنية التى اجتزتها .. واعتقد أن هذه التطورات يمكن أن تساعدك كطبيب نفسانى أكثر من ذكر الحوادث التى مرت بى .. وعلى العموم لم يكن فى حياتى حوادث ذات شأن .. كانت حياة هادئة .. حياة بين الكتب .. وكل ما يحدث فيها ، يحدث فى عقلى وفى تفكيرى .. لا فى العالم الخارجى المحيط بى ، وقد مضيت فى هذه الحياة إلى أن عدت من إنجلترا .. وبعد خمس سنوات من عودتى التقيت بدرية .. زوجتى .. وقد وجدت فيها كل ما كنت أنشده فى الفتاة التى أنزوها.. كانت متحررة فى عقليتها .. مثلى .. وتحب القراءة .. مثلى .. والموسيقى .. والهدوء .. كنا متفقين فى كل شىء .. وقضينا

سنوات سعيدة حلوة .. إلى أن بدأت هذه الحالات النفسية ..
وهنا بدأ دورك في حياتنا .
وسكت كأنه انتهى من حديثه ، ولكنه ظل راقدا على
الأريكة ، كأنه مستريح في رقدته ولا يريد أن يقلق راحته
أحد ..

وقلت لأدفعه إلى مزيد من الكلام :
— متى بدأت زوجتك تعاني هذه الحالات النفسية ؟
وعقد ما بين حاجبيه ، يحاول أن يتذكر ، ثم قال :
— ربما بدأت بعد أن أصيبت بنوبة الشلل لأول مرة ..
وقد فسرت حالتها على أنها نتيجة جرعها على .. ولكن عندما
استمرت هذه الحالة اقتنعت بأنه لابد أن يكون هناك سبب
آخر غير مجرد الجرع .
قلت في هدوء :

— هل كانت زوجتك أول امرأة في حياتك ؟
ورفع عينيه إلى وابتمس ابتسامته الصغيرة الساخرة ، ثم
عاد وعدل رأسه وقال في صوت مترخ كسول :
— أنها أول حب .. ولكنها ليست أول امرأة .. وعلى
العموم ليس في حياتي كثير من النساء .. لقد قضيت حياتي
حتى تخرجت في الجامعة ، وليس في حياتي أى امرأة .. وقد
كنت اعتبر هذا نقصا في .. ولكن طبيعتى لم تساعدنى على
التغلب على هذا النقص .. وبعد أن سافرت إلى إنجلترا التقيت
بأول امرأة في حياتي .. كان اسمها ليزا .. وقد دهشت ليزا
عندما اكتشفت انى بكر .. وضحكت كثيرا .. وضحكت معها ..
ثم تعرفت في إنجلترا بفتيات أخريات .. ولكنى لم أكن

مستهترا .. وبعد أن عدت إلى مصر ، التف حولي كثير من البنات .. وكنت أعلم انهن يلاحقننى طمعا فى الزواج بى .. فكنت اكتفى بمغامرات عابرة مع كل منهن .. مغامرات بسيطة قد لا تتعدى الحديث فى التليفون .. إلى أن التقيت بدرية ، وكانت الوحيدة التى لم تلاحقنى .. وربما كان هذا أحد الأسباب التى دفعتنى إلى الزواج بها ..

قلت فى بساطة :

— وهل كنت أول رجل فى حياتها ؟
واعتدل جالسا على الأريكة فجأة ، ونظر إلى نظرة مترددة ، ثم نكس عينيه ، وابتلع ريقه ، وقال فى صوت خفيض :

— لقد كانت مخطوبة قبل أن نلتقى .. ولكن هذا لا يهم .. حتى لو لم تكن مخطوبة ، فإن من حقها أن تحب .. أن تعيش .. ما دامت ليست مرتبطة بعهد .. لماذا أعطى لنفسى حق الحياة قبل الزواج ، وأحرم منه غيرى .. لمجرد أنى رجل وهى امرأة ! إن الإنسانية لا تختلف فى الرجل عنها فى المرأة ..

وقفز واقفا .. وهو يستطرد قائلا :

— أظن هذا يكفى اليوم .. انى أترك الموضوع كله لك .. حاول أن تعيد درية إلى حالتها الطبيعية .. ومد يده يصافحنى ، قبل أن ينتظر كلمة منى ، وقال :

— شكرا .. أسف لزعاجك !

وخرج من الباب بسرعة ..

وعلمت بعد ذلك انه ترك قيمة أتعابى مع مساعدى !!

وتركنى الدكتور حسن وأنا مشغول به ..
انه يبدو مسيطرا سيطرة تامة على نفسه .. لم يبد منه
خلال جلسته ما يكشف عن نقطة الضعف فيه ، إلا قيامه
المفاجيء من فوق الأريكة عندما سألته عن حياة زوجته
الخاصة قبل الزواج ، ثم هذا الحماس الذى بدا فى كلماته
وهو يدافع عن حقها فى الحب قبل أن تتزوج ، ثم انصرافه
المفاجيء السريع بعد ذلك .. ولكنه لم يقل فى حديثه الطويل
شيئا يمكن أن يكشف عن سره .. إذا كانت فى حياته أسرار ..
لم يرو حادثا واحدا يمكن أن يؤكد لى شذوذه ، ان كان
شاذا .. لقد أصر طول الوقت على أن يقنعنى بأنه « حالة »
طبيعية عادية ..

ورغم ذلك فإن حديث الدكتور حسن يمكن أن يكشف
عن عقدة .. ليست عقدة خاصة به وحده .. ولكنها عقدة
معظم المثقفين فى مجتمعنا .. عقدة المسافة الطويلة التى
تفصل بين الثقافة الحديثة بما توجيه من آراء متحررة
جريئة ، وبين البيئة المحافظة التى نشأنا فيها ، بكل ما
توجيه من تزم وآراء رجعية .. وكلاهما مرتبط بالآخر ،
ارتباط فرع الشجرة المنطلق فى الهواء بالجذور العميقة
المتدة فى باطن الأرض .. ويمكن أن يقال دائما ان كل مثقف
يفكر بعقلين .. عقله ، وعقل أبيه .. ويبدو التضارب بين
العقلين فى كل تصرفاته .. فهو يطالب بحق الحب لكل البنات
ولكنه يحرم منه أخته وأمه - لا لأن أخته وأمه فى نظره -
صنف آخر من النساء .. ولكن لأن أخته وأمه أقرب إلى بيئته

التي يحكمها عقل أبيه ، منهما إلى ثقافته التي يحكمها عقله .. وهو يسمح لنفسه بأن يخرج مع فتاة ، ولكنه لا يسمح لنفسه بأن يرقص التشاتشا ، يسمح لابنته بأن ترقص أو تخرج مع شاب .. و .. و كل المتناقضات في تصرفاتنا الاجتماعية سببها هذه المسافة البعيدة التي تفصل بين ثقافتنا وبيئتنا ، أو بين عقولنا التي حررتها الثقافة ، وتصرفاتنا التي تقيدها البيئة .. ويقال دائما أن الشاب في المجتمع الشرقي الحديث يختار الفتاة التي يحبها بعقله ، ويختار الفتاة التي يتزوجها بعقل أبيه .. إن الزواج أكثر التصاقا بالبيئة من الحب .. و « عقل أبيه » هو العقل الباطن الذي ترسب فيه كل مخلفات البيئة ، والذي يتحرك لا إراديا ليوجه تصرفات وذوق الشاب المثقف ، توجيهها يتناقض مع ثقافته ..

ولكن ..

هذا التناقض بين الثقافة الجديدة ، والبيئة التي نشأنا فيها ، إذا كان يسبب معاناة نفسية مستمرة ، إلا أنه لا يكفي للوصول هذه المعاناة إلى حالة الخطر ، أو حالة الأزمة النفسية .. إلا إذا وصل التناقض إلى حد معين تشتد فيه قوة الجذب بين العقل الواعي والعقل الباطن .. والعقل الواعي مربوط دائما إلى العقل الباطن بحبل طويل .. طويل جدا .. ويستمر العقل الواعي سائرا في طريقه وراء الثقافة الحديثة والمجتمع الجديد ، وهو يجرجر وراءه هذا الحبل الطويل ، إلى أن يصل إلى نقطة معينة ، ينتهى عندها طول الحبل ، فيحس بشيء يجذبه .. ويحاول أن يستمر في طريقه ، أن يتقدم فتشده قوة الجذب ..

وتشده أكثر .. إلى أن يسقط العقل منكفئاً على وجهه ..

فإذا كانت هذه هي حالة الدكتور حسن .. فما هي النقطة التي وصل إليها ، أو الحادث الذي اعترض حياته ، وانتهى به إلى هذه الحالة النفسية التي تسبب له نوبات الشلل المؤقت .. إذا كان فعلاً ضحية حالة نفسية ؟ هذا ما يجب أن أصل إليه ..

والوصول ليس سهلاً .. لأن المريض المثقف يستطيع دائماً أن يستعمل ثقافته في خداع نفسه .. إنه يستطيع أن يبرر تصرفاته الشاذة تبريراً يرضى عقله الواعي ، ويخفى عنه حقيقة جنونه .. فإذا كان يحدث نفسه بصوت عال ، استطاع أن يبرر هذه الحالة بأنه يفكر بصوت عال .. وأن التفكير بصوت عال يساعد على تركيز المخ .. و .. إلى أن يصل إلى اقناع نفسه بأنه ليس شاذاً ، ولا مجنوناً . ولا يستطيع بذلك أن يكبت جنونه ويستمر في كبته ، إلى أن ينطلق هذا الجنون في ظاهرة عضوية ، كالإصابة بالشلل المؤقت ..

وما دام المريض قادراً على خداع نفسه ، وتبرير جنونه ، فهو أقدر على خداع الطبيب ..
إنها حالة صعبة ..

والمعركة بيني وبين الدكتور حسن - إذا كانت هذه هي حالته - معركة طويلة ، سلاحى الوحيد فيها .. الصبر !
ولم يتصل بى الدكتور حسن فى الأيام التالية .. ولم أكن أطمح فى أن يتصل بى .. كنت أعلم أن دوره فى هذه الفترة هو الهروب .. الهروب من نفسه ، والهروب منى ..

ثم جاءت السيدة حرمة في الموعد الذي سبق أن حددته لها ..

لم تكن مضطربة .. ملامحها ثابتة ، وحركاتها رشيقة محترمة .. ولكنها كانت مرهقة .. لونها باهت .. وحركاتها الرشيقة المحترمة يشوبها اعياء .. وفي عينيها لمعة عناد وتصميم .. عناد شديد ..

وجلست بجوار مكتبي وهي تضرب بفردة قفازها فوق حقيبتها .. وظلت ساكنة .. كأنها جاءت إلى لتستريح بعد أن مشت مشوارا طويلا ..

وابتسمت لها ابتسامة كبيرة ، وقلبي يكاد يطل من بين شفتي ليمسح عذابها ، وقلت :
— كيف الحال ؟

قالت دون أن تنظر إلى :

— يزداد سوءا ..

قلت وأنا أمد عنقي نحوها :

— كيف ؟

وجذبت من صدرها تنهيدة عميقة ثم قالت :

— لقد استمر أياما في محاولة اقناعي بأنى طرشاء ..

ولكني كنت قد قررت أن اتجاهل محاولته .. أصبحت

لا أهتم إذا رفع صوته عندما يحدثنى .. أو خفض صوته ..

أو ادعى أنى لم أسمعنه .. وكنت عنيدة .. عنيدة إلى جد

القسوة على نفسى .. وعليه .. وكنت لاحظ خلال هذه المدة

أنه يزداد عصبية .. لا يكف عن الحركة في أنحاء البيت .

ولا يستطيع أن يستمر في القراءة كعادته .. ثم فجأة ، ذات

صباح ، سألنى : هل أودعت الشيك فى البنك .. ودهشت ، فلم يكن قد أعطانى شيكا لأودعه فى البنك .. ولكنه صمم على أنه أعطانى الشيك ليلة أمس، وأنى وضعته فى دولابى الخاص إلى أن أودعه فى البنك .. وعندما صممت على أنه لم يعطنى شيئا ، فتح دولابى الخاص .. ففتح بعنف .. كاد يكسره .. وإذا بى أجد الشيك بداخله .. مؤكداً إننى لم أضع هذا الشيك فى دولابى .. هو الذى وضعه .. وفهمت .. أنه يحاول أن يلجأ إلى طريقة أخرى لإيهامى بأنى مجنونة .. أو ليجتنى فعلا .. وبعد يوم واحد عاد يسألنى عن ساعته التى أعطاه لى لأرسلها للتصليح .. ولم يكن قد أعطانى ساعته .. وبعد مناقشات عنيفة بينى وبينه .. أخرج الساعة من حقيبة يدى .. هو الذى وضعها فى حقبتى .. وقاومت .. قاومت كل ذلك .. وحاولت أن أقاومه فى هدوء .. حاولت ألا أقنعه بأن حالته تزداد سوءا .. وأن تصرفاته تصرفات مجنون يحاول أن يقنعنى بأنى أنا المجنونة .. وكنت أنفرد فى غرفتى وأبكى .. وبكى كثيرا .. إلى أن كان هذا الصباح .. وحاول مرة أخرى أن يوهمنى بأنه أعطانى مائة جنيه لأحتفظ بها .. ففقدت أعصابى .. لم أعد احتمل . وصرخت فى وجهه . أنت مجنون .. مجنون ..

وسكنت درية برهة وهى تضغط بأسنانها على شفتها السفلى ، كأنها تقاوم دموعها ..
وسألته برقة :

— ماذا فعل بعد أن واجهته بجنونه ؟
قالت :

— وقب أمامى متصلبا .. وبرقت عيناه ببريق عجيب مخيف .. وارتعشت شفتاه بشدة .. ثم انسحب من أمامى فى خطوات بطيئة ، ورأسه واقع على صدره .. ودخل غرفة مكتبه ، وأغلق بابها عليه بالمفتاح .. وجريت وراءه .. وأنا أناديته .. حسن .. حسن .. ولم يرد على .. وأخذت أطرق بكلتا يدي باب غرفة المكتب .. ولم يفتح لى .. إنه لا يزال حتى الآن سجيناً فى مكتبه ..
وسكنت ..

وسكت معها برهة ، ثم قلت فى صوت هادئ رقيق :

— هل شاهدت فيلم « ضوء الغاز » ؟

ونظرت إلى فى دهشة وقالت :

— ماذا تقصد ؟

قلت محتفظاً بهدوئى :

— انه فيلم عرض فى القاهرة ، ومثلته انجريد برجمان وجيمس ماسون .. يدور حول زوج يحاول اقناع زوجته بأنها مجنونة ..

واتسعت عيناه فى غضب ، وقالت فى حدة :

— هل تقصد أن كل ما قلته لك ، هو مجرد قصة نقلتها

عن فيلم شاهدته ؟

وكنيت أعلم أن هذا محتمل .. فكثير من المرضى النفسانيين يتأثرون بأفلام السينما .. إلى حد أن ينقلوا وقائعها إلى حياتهم الخاصة .. ولكنى أخفيت هذا الاحتمال عنها .. أخفيت شكوكى ، وقلت لها كاذبا :

— لا .. أقصد أن زوجك ربما تأثر بهذا الفيلم ..

ونظرت إلى كأنها تفحصنى ، ثم قالت :
 — على كل حال .. أؤكد لك أنى لم أشاهد هذا الفيلم ..
 وأرجوك .. أرجوك أن تصدقنى !
 قلت لها فى هدوء يثيرها :
 — إننى أصدقك .. ليس لدى دليل أكذبك به !
 وهمت أن تثور ، ولكنى استطردت بسرعة قبل أن أترك
 لها فرصة للثورة :
 — وهل لا يزال يصر على أنك طرشاء ؟
 قالت :
 — نعم .. لقد أضاف محاولة اقناعى بالنسيان ، إلى
 محاولة إقناعى بأنى طرشاء ..
 قلت وأنا انتقل بها إلى موضوع آخر :
 — كم كان عمرك عندما تزوجتما ؟
 قالت بلا تردد :
 — عشرون سنة ..
 قلت :
 — وكَمْ كان عمرك عندما أحبيبت لأول مرة .. قبل
 الزواج ؟
 قالت بعد تردد وهى تنظر إلى فى تعجب :
 — كنت فى السادسة عشرة .. لا .. الخامسة عشرة ..
 وسكت مطرقا ..
 وعادت تقول :
 — ماذا نستطيع أن نفعل .. لقد زدتنى حيرة ..
 قلت وأنا ابتسم ابتسامة صغيرة :
 — تأكدى أنى أكثر منك حيرة .. إن العلاج يبدأ دائما

باعتراف المريض بحاجته إلى العلاج .. وإلى الآن لم يعترف
زوجك بحاجته إلى العلاج ، ولا .. و ..
وتوقفت .. كانت غلطة انزلق فيها لسانى ..
وقالت ساخرة :- — ولا أنا .. أليس كذلك ؟
قلت :

لا أقصد ، ولكن لو أنك اعترفت بحاجتك إلى العلاج ،
لكان هذا أسهل على .. حتى لو لم تكونى مريضة .. ولأدى
بى مباشرتك بالعلاج ، إلى علاج زوجك ..
قالت وهى تكاد تصرخ :

— لماذا تصر على أنى فى حاجة إلى علاج .. إنى إذا جننت
فلن يكون زوجى السبب .. أنت السبب !
قلت وأنا أنظر إليها بعينين مشفقتين :

— إنى أشكو إليك حيرتى .. هذا هو كل شىء ..
صدقينى ، ليس من مهمتى أن أقول كل إنك مريضة ..
ولا أن أقنعك أنك مريضة .. إنها مهمة المريض نفسه أن
يחס بمرضه ..

وسكتت وصدرها يتهدج من الغضب ، وأصابعها تنقر
على مسند المقعد فى دندنات عصبية ، ثم قالت وهى لا تنظر
إلى :

— وما العمل ؟

قلت :

— الصبر ..

وقفزت واقفة وقالت دون أن تنظر إلى أيضا :

— شكرا ..

ثم اتجهت إلى الباب ، وخرجت دون أن تحييني .

وأحسست أنها لن تعود أبدا ..

ونظرت إلى نوتة المذكرات الطبية التي أسجل فيها

الحالات التي ترددت علىّ للعلاج .. وطويتها وأنا مقتنع أنى

لن اقتحها مرة ثانية على حالة الدكتور حسن ..

واسترحت قليلا .. ثم استقبلت الحالة التالية .

ومر الوقت ..

ساعة .. ساعتان . ثم فجأة دخل علىّ مساعدى ، ليقول

لى أن حرم الدكتور حسن منتظرة على سماعة التليفون ،

وتقول إن الحالة خطيرة ! ..

وحول مساعدى المكالمة إلى تليفونى الخاص الموضوع

على مكتبى ، وسمعت صوت حرم الدكتور حسن ، تقول ..

تكاد تصرخ :

— زوجى يا دكتور .. لقد أصيب بنوبة الشلل .

وقلت بسرعة :

— سأكون عندك بعد نصف ساعة .. العنوان من

فضلك؟

وقالت :

— ١٧ شارع حسن صبرى .. أرجوك يا دكتور ..

أسرع !

بعد نصف ساعة كنت فى بيت الدكتور حسن ..

وصدمت عندما التقت عينائى بقطع الأثاث التى تملأ بهو

الاستقبال .. كنت أتصور الأثاث في بيت الدكتور حسن ،
 بسيطا ، مريحا ، أنيقا .. يعبر عن ذوق عالم اقتصادى
 وزوجة هادئة .. ولكن الأثاث الذى رأيته كان أثاثا ثقيلا
 متنافرا مرتببا ترتيبا مرتبكا.. دولا ب ضخم على الطراز
 الصينى وبجانبه مقعد أوبيسون .. وأريكة واسعة على
 الطراز الفرنسى وبجانبها مائدة مودرن .. و. وتحف كثيرة
 غالية .. إنه بيت يدل على الثراء ولا يدل على الذوق البسيط
 واختيار أثاث البيت يدل ظاهريا على الشخصية النفسية
 لأصحابه .. والشخصية التى يبرزها هذا الأثاث ، شخصية
 مرتبكة معقدة .. ولا أدرى هل هى شخصية الدكتور حسن،
 أم شخصية زوجته .. ربما كانت شخصية الاثنين .. ربما
 كان هذا الأثاث يدل على التناقض بين الشخصيتين رغم أن
 كليهما أكد لى أكثر من مرة أنه متفق مع الآخر فى ذوقه .

وبقيت وحيدا فى اليهو أكثر من خمس دقائق .. ثم جاءت
 السيدة حرم الدكتور حسن تهزول فى خطواتها .. ترتدى
 الثوب الذى كانت ترتديه عندما جاءتنى فى العيادة ..
 وخصلة من شعرها ساقطة فوق جبينها .. ونظرات
 مضطربة فى عينيها .. وقالت فى صوت مبهور :

— آسفة .. إن الدكتور أنور المفتى لا يزال معه !

وقلت وأنا أبتسم لها مواسيا :

— ماذا حدث ؟

قالت وإحدى يديها تضغط الأخرى فى حركة عصبية :

— عدت من عيادتك ، فوجدته لا يزال حابساً نفسه في غرفة مكتبه ، والباب مغلق بالمفتاح .. ونقرت على الباب نقرات خفيفة فلم يفتح لي .. فذهبت إلى الشرفة ودرت فيها حتى استطعت أن أراه من خلال النافذة الزجاجية المغلقة .. رأيته ملقى على المقعد وعيناه جاحظتان .. وشفتاه تتحركان بلا صوت .. ويحاول أن يقوم فلا يستطيع .. انى أعرف هذه الحالة . حالة الشلل التى تصيبه .. وصرخت .. وناديت الطباخ والسفرجى والسائق .. وتعاونوا كلهم على كسر الباب .. وحملناه إلى فراشه .. واستدعيت الدكتور أنور المفتى .

وسألته بسرعة :

— ماذا فعل عندما رأى سائقه ، وهو في هذه الحالة ؟

قالت وهى تنتظر إلى فى دهشة :

— لا شيء .. لقد كان مشلولاً ..

قلت :

— اعلم .. ولكن حاولى أن تتذكرى كل شيء .. نظرات

عينيه .. حركات ذراعيه .

وقطبت ما بين عينيها تحاول أن تتذكر ، ثم قالت فى

تردد :

— اعتقد أنه كان ينظر إليه نظرات غريبة .. و ..

وسكنت برهة ، ثم انطلقت كأنها رأت الصورة كاملة :

— نعم .. نعم .. لقد كان ينظر إليه نظرات مخيفة .. كل

عينيه جاحظتان .. وعندما حاول أن يتعاون مع الباقيين في حملته ، أذاحه بذراعه السليم .. ضربه على صدره بقوة .. فابتعد السائق ، وترك السفرجى والطباخ يحملانه .. لقد كان زوجي يكره سائقه في هذه اللحظة .. كان يكرهه بجنون .. ولكن ، كيف عرفت يا دكتور ..

قلت وأنا ابتسم لها :

— لم أعرف .. ولكنى استنتجت ..

واستطردت أسألها :

— هل سافر الدكتور حسن هذا الأسبوع إلى

الإسكندرية ؟

قالت :

— لا ..

قلت :

— هذه أول مرة يصاب فيها بنوبة الشلل دون أن

يسافر إلى الإسكندرية ؟

قالت وهى تنظر إلى كأنها تحاول أن تفهمنى :

— اعتقد .. ماذا تقصد ؟

قلت دون أن أجيب عن سؤالها :

— هل أستطيع أن أراه ؟

قالت :

— ولكنه لا يستطيع أن يتكلم .. لسانه مشلول .. وأنت

تعالج مرضاك بالكلام ؟

قلت :

— ليس كل العلاج بالكلام .. يستحسن أن أراه !

قالت :

— الدكتور أنور المفتى لا يزال عنده ..

قلت :

— أنور المفتى صديقى .. ولن يمانع فى أن أراه ..

قالت :

— قد تسوء حالته عندما يراك .. أنى أعرف أنه يكرهك ..

أو على الأقل لا يريد أن يراك .

قلت :

— لن تسوء حالته عما هى ..

ونظرت إلى وفى عينيها نظرات جزعة .. جزع صادق على

زوجها.. ثم قالت فى صوت يمزقه جزعها :

— تفضل ..

وسارت أمامى فى ممر خافت الضوء يفصل بين

الحجرات ..

والواقع أنى لم أكن أريد أن أرى الدكتور حسن ، ولكنى

كنت أريده أن يرانى ، حتى يشعر بأنى رأيتَه فى أسوأ

حالاته . يشعر أنى كشفت عورته النفسية .. فيضطر بعد

أن يسترد قواه أن يأتى إلى ليبرر لى هذه الحالة .. وإذا أتى

إلى ، فسيأتى وهو أكثر استسلاما ، وأضعف قدرة على

السيطرة على نفسه .

والتقيت بالدكتور أنور المفتى خارجا من حجرة المريض بعد أن انتهى من الكشف .. ووقفنا نتحدث .. إنه يؤمن بنفس التشخيص الذى أجمع عليه معظم الأطباء .. حالة نفسية عصبية أدت إلى التأثير فى بعض مراكز المخ ، وانتهت بحالة شلل مؤقت .

ثم دخلت على الدكتور حسن ..

وما كاد يرانى حتى خرجت عيناه .. اتسعتا وبرزتا .. وفيهما هلع .. وخوف .. واضطراب .. وتحركت شفثاه .. فتحهما إلى آخرهما .. ولسانه راقد بينهما لا يستطيع حراكا .. وانطلق من حلقه صوت كالخوار المرتعش .. ثم رفع ذراعه السليم وأشاح به فى وجهى كأنه يبعد عن نفسه شيئا .. ثم غطى وجهه بكفه ودموع صامته مريضة تسيل بطيئة حزينة ، على خديه ..

وكان هذا يكفى ..

وخرجت من الغرفة بسرعة ..

والزوجة الجزعة تجرى ورائى وهى تهمس فى صوت

مبحوح :

— قلت لك أنه سينزعج لرؤياك .. أرايت كيف استقبلك ؟

قلت :

— هل أوصى له الدكتور أنور بدواء منوم ؟

قالت :

— نعم ..

قلت :

— هل تستطيعين أن ترسلى لى السائق غدا ..

قالت :

— لماذا .. ماذا تريد أن تفعل ؟

قلت :

— لا أدرى بعد .. ولكنى فى حاجة إلى هذا السائق ..

ونظرت إلى فى تردد ثم قالت فى استسلام :

— سأرسله لك ..

وتركتها فى جزعها ، وعدت إلى البيت وأنا أحاول أن

أجمع فى ذهنى كل خطوط حالة الدكتور حسن ..

من الواضح أن نوبة الشلل المؤقتة تصيبه عقب اشتداد

المعاناة النفسية ، ووصولها إلى قمته .. وهذه النوبة الأخيرة

أصابته عقب أن استمر أسابيع يحاول إقناع زوجته بأنها

مجنونة .. وعقب أن خاف انكشاف سره على يدي ، بعد أن

علم أن زوجته قد لجأت إلى .. ليس لهذه النوبة أى علاقة

بأسعار البورصة أو بأعماله المالية ، أو بالإرهاق ، كما كان

يدعى .. فأسعار البورصة طوال الأسابيع الماضية كانت

ثابتة .. ولم يحدث شئ جديد فى الدوائر المالية ، ثم إنه لم

يشك لى ولا لزوجته إرهاقا .. إنها المعاناة النفسية التى

تؤدى إلى الشلل .. ولكن .. إذا كانت هذه النوبة الأخيرة قد

أصابته بسبب تدخل فى حياته الخاصة .. فما هو سر

النوبات السابقة ؟

إن الخيط الوحيد الذى يربط بين كل نوبات الشلل السابقة ، هو أنها كانت تحدث عقب عودته من الإسكندرية .
فماذا كان يحدث له فى الإسكندرية ؟
بعيدا عن بيته .. بعيدا عن زوجته ..
رجل له حياة خاصة يخفيها هناك ، فى الإسكندرية ؟
هذا ما قررت أن أسأل فيه سائقه الخاص .. ولم تكن
هذه هى المرة الأولى التى استعين فيها بسائق خاص ،
للكشف عن أسرار مخدومه .. سبق أن استعنت بهم فى
حالات كثيرة ، وكانوا دائما خير معاونين لى .. إن السائق
الخاص أقرب الناس إلى الحياة الخاصة !



وجاءنى الأسطى صالح فى اليوم التالى ..
إنه كما وصفته السيدة حرم الدكتور حسن ..
ضخم الجثة .. وقع النظرات .. ابتسامته لزجة .. ووجهه
المنتفخ يلمع كأنه قد غسله بالزيت ..
ووقف أمامى وهو ينظر فى وجهى بوقاحة رغم أنه يحنى
رأسه قليلا ادعاء للأدب ..
وقال فى صوت أكثر لزوجة من ابتسامته :
— تحت أمرك يا سعادة البية ..
ولم ابتسم له ، نظرت إليه فى قوة أحاول أن أطفىء نفاقه
وخبثه ، وقلت فى صوت جامد :
— اجلس يا أسطى صالح ..

ورد وهو يزال يبحث بعينه في وجهي كأنه يحاول أن
يكشف نقطة ضعف في ينفذ منها :

— العفو يا سعادة البية .. لا يمكن أبدا ..

وتركته واقفا أمامي ، لم الح عليه أحسست أنه صنف
من الناس لا يفلح معه التودد ولا الذوق .. وقلت له وأنا
احتفظ أمامه بلهجة السيد :

— أنت تعلم أن الدكتور حسن مريض .. ومرضه خطير
قد يقضى عليه .. وسبب مرضه هو حالة نفسية ، أو حالة
عصبية .. ولكي نستطيع أن نعاونه على الشفاء ، يجب أن
نعلم كل شيء عنه .. عن حياته الخاصة .. واعتقد أنك
تعرف الكثير عن حياته الخاصة ..

قال وهو يبلل شفثيه بلسانه :

— تقصد سعادتك أن الدكتور حسن مجنون .. أبدا ..
مستحيل .. أنه اعقل الناس .. في عمري كله لم أجد رجلا في
مثل عقله .. يا سلام .. و ..
وقاطعته قائلا :

— لا أقصد أنه مجنون .. لو كان مجنونا لما أصيب
بالشلل .. ولكنني أقصد أن في حياته الخاصة ما يعاينيه
ويؤدى إلى مرضه ..

قال في خبث وهو ينظر إلى من تحت حاجبيه :

— أبدا يا سعادة البية .. و ..

وعدت أقاطعه :

— ألم تلاحظ عليه أى تصرف شاذ ..

قال وقد ارتفع صوته قليلا :

— مستحيل يا دكتور .. الدكتور حسن راجل يمشى

بحساب .. بميزان .. بالدقيقة .. لو تأخرت عنه دقيقة واحدة
احتسبها غلطة لا تغتفر .. و ..

وقاطعته :

— أين تعودت أن تذهب به ؟

قال :

— أبدا يا سعادة البية .. من البيت للمكتب ، ومن المكتب

للبيت.

قلت بسرعة كأنى أفاجئه :

— وعندما تسافر معه إلى الإسكندرية ؟

وفوجىء فعلا .. اهتزت رموش عينيه .. وابتلع ريقه ..

وقال وهو يدير وجهه عنى ، وقد تغيرت لهجة صوته ..
أصبحت لهجة خفيفة :

— برضه من البيت للمكتب ، ومن المكتب للبيت ..

ونظرت إليه طويلا .. نظرت في عينيه حتى اضطر أن

ينكسهما، وقلت في لهجة حادة :

— يجب أن تتكلم يا أسطى صالح .. انى لا أطالبك

بخيانة مخدومك .. ولكنى أطالبك بأن تساعدنى على علاجه ..

وأنا أريد أن أعرف كل أسرار له لأعالجه بها .. وأعرف أن له

أسراراً .. وأعرف أنك تشاركه هذه الأسرار ..

ورفع عينيه إلى وجهي ، وفيهما تصميم ، كأنه قرر أن يتحدثني ، وقال :

— أوهام يا دكتور .. لا أسرار ولا يحزنون .. الست حرم الدكتور كانت تعتقد أيضا أن في حياته أسراراً .. وكانت تسألني عنها .. الست هي التي تعاني حالة عصبية . وترددت أمامه هنيهة .. لقد رد مفاجأتي ، بمفاجأة أخرى ، وتمايلت دهشتي سريعاً ، وقلت :

— كيف عرفت أن حرم الدكتور تعاني حالة عصبية ؟

قال وهو يعود ويدير رأسه عني :

— لا أعرف .. ولكنها عصبية أكثر من الدكتور .. الدكتور هادئ دائماً .. دائماً .

ثم رفع رأسه إلى ورفع صوته ، واستطرد :

— إنها كل يوم والثاني تحاول أن تطردني من الخدمة ..

بلا سبب !

قلت :

— لابد أن يكون هناك سبب ..

قال في برود ووقاحة :

— عدم استلطاف ..

وسكت برهة ، أفكر في وسيلة أجره بها إلى الكلام ، ثم

قلت في يأس :

— نعود إلى الدكتور حسن .. ألم تلاحظ عليه تصرفات

غريبة خصوصاً عندما تسافر معه إلى الإسكندرية ؟

قال في برود :

— لا ..

قلت :

— أين يقيم عندما يذهب إلى الإسكندرية ؟

قال بنفس البرود :

— في البيت ..

قلت :

— نفس البيت الذى يقيم فيه مع زوجته خلال شهور

الصيف.

وتنهد كأنه زهق من أسئلتى السخيفة ، وقال :

— طبعاً ..

قلت :

— من تعود أن يزوره في البيت ؟

قال وهو يثنى إحدى ركبتيه ليستريع في وقفته :

— لا أحد .. كل مقابلاته في المكتب ..

قلت وأنا أنظر في عينيه :

— ألم تلاحظ أن جميع المرات التى أصيب فيها بالشلل

كانت عقب عودته من الإسكندرية ؟

قال :

— لا والله .. لم ألاحظ شيئاً !

قلت :

— أنا لاحظت ذلك .. وأريد أن أسألك عن السبب ؟

قال :

— الله اعلم .. أنا سائق ياسعادة البيه .. لست دكتورا !!
وعدت أنتظر في وجهه ..

إنه لن يتكلم ..

ربما تكلم لو رشوته .. ببعض المال .. إنه من هذا
الصنف الذى يمد لسانه مع يده .. ولكنى لن أرشوه .. إن
الرشوة قد تجعله يتكلم ، ولكنها لا تكفى ليقول الصدق .
وقلت له فى ازدياء :

— شكرا يا أسطى .. هذا يكفى !

وتلكا قليلا ، كأنه يريد أن يقول شيئا ثم أرخى عينيه
كأنه عدل عن الكلام ، وقال :

— العفو يا دكتور .. أى خدمة .. السلام عليكم !

وخرج ..

وبمجرد خروجه رفعت سماعة التليفون ، واتصلت
بحرم الدكتور حسن ، وقلت لها فى لهجة حازمة :

— اطلبى الأسطى صالحو الآن .. بمجرد أن يصل إلى
البيت .. وأبلغيه أنه طرد من خدمتكم .. وأعطيه بقية
حسابه ..

قالت والدهشة تنطلق مع صوتها :

— لماذا .. ماذا فعل ؟

قلت :

— لم يفعل شيئا .. ولكن أرجوك .. افعل ما قلته لك ..

قالت :

— لماذا ؟

قلت :

— ثقی بی ..

قالت محدّدة :

— ولكن الدكتور حسن سيغضب عندما يعلم انى
طرده .. أنت تعلم مدى حرصه عليه ..

قلت :

— الدكتور حسن لن يعلم .. لا تقولى له شيئا ..

قالت :

— سيعلم بعد أن يشفى ..

قلت :

— سيعود الأسطى صالح ، قبل أن يشفى الدكتور
حسن .

قالت :

— إتنى لم أعد افهمك يا دكتور ..

قلت :

— أرجوك مرة ثانية .. ثقی بی .. وستفهمين كل شيء
في حينه ..

وسكنت هنيهة مترددة ، ثم قالت وهى تزفر أنفاسها في
سماعة التليفون :

حاضر يا دكتور .. أمرك !

وكنتم واثقا أن الأسطى صالح سيعلم أن سبب طرده هو أنه لم يتكلم أمامى .. وكنتم واثقا أنه لن يستطيع أن يصل إلى الدكتور حسن وهو راقد مشلولاً في فراشه ، ليشكو إليه أن زوجته قد طردته .. وفي هذه الحالة سيضطر أن يعود إلّ .. ليتكلم !



ومضى يوم ..

ويوم آخر ..

وفي اليوم الثالث جاء إلى الأسطى صالح .. وتركته ينتظر في حجرة الاستقبال بالعيادة إلى أن انتهت من كل مرضاى .. انتظر أكثر من ثلاث ساعات .. ثم استقبلته في برود وأنا انظر إليه في ازدراء .. لم تكن في عينيه هذه النظرات الخبيثة الوقحة التى رأيتها في أول مرة .. كان مهتزا .. حائرا .. ضعيفا .. ولم أدعه للجلوس ، ظلت انظر إليه في برود وهو واقف أمامى في تواضع وأدب .

وقال في صوت مبحوح :

— لقد جئت لأطمئن من سعادتك على صحة الدكتور حسن .. سعادتك تعلم أنه مضى على في خدمته أكثر من عشر سنوات .. فهو أكثر من مخدومى .. إنه عمر طويل .. ليس لى أحد غيره .. و ..

وقاطعته قائلاً :

— الدكتور حسن لا يزال في حالة خطيرة ..

وظهر الخوف في عيني الأسطى صالح ، وقال :

— وهل سيطول مرضه .

قلت بلا اهتمام :

— شهران .. ثلاثة .. ربما خمسة شهور .

وكنت اعلم أن الأسطى صالح يسأل هذا السؤال ليطمئن

إلى عودته إلى عمله .. وعلى المدة التي سينقطع فيها مرتبه .

وقال في جزع :

— ياه .. خمسة شهور ؟!

قلت :

— وربما أكثر .. إننا نحاول أن نعجل بشفائه .. ولكن ..

وسكت دون أن أكمل حديثي ..

ونظر إلى في تردد ، ثم قال :

— هل تستطيع سعادتك أن تعجل بشفائه لو عرفت عنه

كل شيء .

قلت بلا اكتراث :

— اعتقد ذلك ..

وعاد يسكت .. سكوت فترة أطول كأنه يفكر خلالها .. ثم

انطلق بصوت عال :

— ولكن ما دخل حياته الخاصة في علاجه ..

وقلت وأنا ابتسم له لأول مرة :

— أنت رجل مثقف يا أسطى صالح .. ولا بد أنك قرأت

اليافطة المعلقة على باب العيادة .. طبيب نفسانى .. والطبيب
النفسانى يعالج الناس بأسرارهم .

ونظر إلى فى تردد كأنه يحاول أن يفهمنى .. ثم قال :
— إن للدكتور حسن أسراراً .. ولكن .. لو قلت لك هذه
الأسرار ، هل تنقلها إلى الهانم ؟
قلت :

— ليس حتماً .. إلا إذا كان دورها فى العلاج يقتضى أن
تعلم بها ..
قال :

— ياخبر أسود .. مستحيل .. يجب ألا تعلم .. مستحيل
أن تعلم .
قلت :

— إن شفاء الدكتور حسن ، أهم من إخفاء أسرارهِ عن
زوجته .

وسكت الأسطى صالِح ..
سكت طويلاً .. وهو واقف أمامى محنى الرأس كأنه على
وشك البكاء .

وقلت له فى رقة وأنا أشير إلى المقعد الطويل :
— اجلس يا أسطى .. تفضل !
وجلس الأسطى صالِح بلا تردد كأنه كان فى حاجة فعلاً
إلى الجلوس ..
وحنى رأسه ، وظل صامتاً كأنه يستجمع قوى لسانه ،

ثم عاد ورفع رأسه ، وقال وصوته مخنوق :
— يا دكتور عيب أتكلم .. عيب والله .. إن مهنتنا كمهنة
الطبيب .. السائق الخاص كالطبيب الخاص ، كل منهما يجب
أن يحتفظ بأسرار المهنة .. لو تكلمت خنت مهنتي .. وخنت
الدكتور حسن .

ولم أرد عليه :
بقيت صامتا أنظر في وجهه بعيتين ثابتتين ..
وعاد وحنى رأسه ، وتنهد كأنه يستغفر الله ثم قال وهو
ينظر إلى يوز حدائه :

— الدكتور حسن كان دائما رجلا هادئا .. متزنا .. لم
تكن له أبدا أسرار حتى قبل أن يتزوج .. لو كانت له أسرار
لعرقتها .. فهو لا يجيد قيادة السيارة .. نظره ضعيف ..
فكان لا يخرج من البيت إلا معي . ولم أعرف له سرا .. كان
كل ما هنالك ، أنه يتردد أحيانا على حفلات خاصة تقام في
بيوت أصدقائه .. ومرة أو مرتين صحب معه إحدى
الآنسات ليوصلها إلى بيتها .. وكان رغم شبابه محترما ..
يا سلام .. محترما جدا .. كنا نخافه ونحسب حسابه رغم
أنه قليلا ما تحدث إلى أحد منا .. أقصد أحد من الخدم ..
ولم يحدث أبدا أن خصم من مرتب واحد منا .. أو شخط في
واحد منا .. رجل قلبه طيب .. سكر .. ثم .. تزوج .. تزوج
منذ ثمانى سنوات .. وممرت ثلاث سنوات ، ولم يتغير منه
شئ .. إنه نفس الرجل الطيب ، الهادئ ، المحترم

السكر.. وكل ما حدث بالنسبة لى أن الهانم زوجته ، لم تكن ترتاح إلى .. كانت تعاملنى دائما بقسوة .. ربما لأنى لم اعتبر نفسى فى خدمتها .. أنا فى خدمة الدكتور حسن فقط .. لكنها على أى حال ست صعبة جدا .. تحاول السيطرة على كل شىء .. حتى على الدكتور حسن .

وسكت الأسطى صالح ، وأخرج منديلا أنيقا من جيبه مسح به قطرات العرق التى بدأت تنبثق من جبينه ، ثم تنهد، واستطرد قائلا :

— وبعد ثلاث سنوات من زواجه .. سافرت معه يوما إلى الإسكندرية .. وهناك .. كان الدكتور حسن على موعد مع صديق له محام يقع مكتبه فى شارع زغلول .. كان الموعد فى الساعة السادسة مساء .. وذهبنا .. وأوقفت السيارة أمام باب العمارة .. ونزلت منها ودرت لأقف خلفها تأدبا .. كما جرت العادة .. وبقي الدكتور حسن داخل السيارة فى انتظار صديقه .. واقتربت فتاة تبيع اليانصيب .. ومدت يدها داخل السيارة تحاول أن تبيع أوراقها للدكتور حسن .. ولم انتبه لها بادئ الأمر .. ولكنى عندما انتبهت كان الدكتور حسن يتحدث إليها وهو يبتسم .. وكانت يدها لا تزال ممدودة داخل السيارة .. وظننت أنها تلح عليه وتضايقه ليشتري منها ، فحاولت أن أبعدها عن السيارة .. ولكنه نظر إلى نظرة تأمرنى بأن اتركها .. وسمعتة وأنا دهش ، يعرض عليها أن تشتغل خادمة عنده بدل أن تبيع

اليانصيب .. وقبل أن اسمع بقية الحديث نظر إلى نظرة تأمرنى بأن ابتعد .. فابتعدت .. وبعد قليل انصرفت الفتاة ، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة .. وأنا انظر خلفها دهشا .. ان الدكتور حسن قليل الكلام .. إنه لا يحدث أحدا منا إلا بحساب .. كلمات قليلة نسمعها منه كل يوم .. فما الذى دفعه إلى أن يحدث هذه الفتاة القذرة المتشردة ، كل هذا الحديث .. ربما كانت طيبة قلبه .. وحاولت أن أقنع نفسى إن كل ما هنالك أنه رجل طيب القلب .. ولكنى بقيت على دهشتى إلى أن انتهينا من جولتنا ، وعدت به إلى البيت ، وكانت الساعة حوالى الثامنة والنصف ، وقبل أن ينزل الدكتور حسن من السيارة ، التفت إلى وتكلم .. وتكلم بسرعة .. وكان يأمرنى أن أذهب إلى شارع سعد زغلول .. لأجد هناك نفس الفتاة بائعة اليانصيب .. واقفة أمام باب نفس العمارة .. فأحملها إلى البيت .. ونظرت إليه وأنا لا أصدق أذنى .. وقبل أن أعبر له عن دهشتى .. وضع فى يدى خمسة جنيهات وهو يقول .. لعل الفتاة تريد شيئا .. إنها ستشتغل خادمة عندنا .

وسكت الأسطى صالح ريثما ابتلع ريقه ، ثم استطرده قائلا :

— وفهمت أن هذه الجنيهات الخمسة لى .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعطينى فيها الدكتور حسن بقشيشا .. لى أو لاي أحد من خدمه .. إنه يدفع لنا مرتبات حسنة ،

ويمنحنا كل عام مكافأة أو علاوة .. ولكنه لا يدفع بقشيشا أبدا .. وفهمت أيضا مهمتى الجديدة .. وذهبت إلى المكان المحدد ، ووجدت الفتاة .. ولم يكن يهتمنى أن أحمل إلى الدكتور حسن أى فتاة يريد لها هذا الصنف من البنات .. إنه شىء مخجل مقرف .. لقد جلست بجانبى فى السيارة كأنها صفيحة زبالة .. رائحتها تثير معدتى .. ومنظرها يفضح الكلب .. وحمدت الله أن أحدا لم يرنى وأنا معها فى الطريق إلى البيت .. وصعدت بها إلى الدكتور .. ووقفت انتظر الأوامر .. وكانت الأوامر هى الانصراف .. انتهت مهمتى .. ولكن لم انصرف .. كانت دهشتى وعجيبى أكبر من أن اسكت عليهما .. فبقيت جالسا فى السيارة أمام البيت .. ووقفت ساعة .. وأنا لا أستطيع أن أتحرك .. أريد أن أعرف السر .. أن أخلص من دهشتى وعجيبى .

وفى الساعة الخامسة صباحا .. خرجت الفتاة من البيت..فناديتها .. وامسكتها من يدها فى عنف وقلت لها إنها لو حاولت أن تعود إلى هذا البيت .. فسأستدعى لها البوليس واتهمها بأنها لصة .. وأجابته وهى تبتسم : لا تخف ، سعادة البية قال لى نفس الكلام .. لن أعود .. وسألتها : كم أعطاك سعادة البية .. ونظرت إلى فى تردد .. وضغطت على يدها أكثر ، فاعترفت أنه أعطاه عشرة جنيهات .. عشرة جنيهات لهذه الكلبة .. ثم لاحظت وأنا أحادثها أن عطرا جميلا ينطلق منها .. ولاحظت أن بشرتها نظيفة .. تلمع من

النظافة .. إنها أكثر بياضا .. العماص انكشف عن عينيها ..
فبدتا جميلتين.. وشعرها مبلول مضفر .. أتدرى ماذا صنع
بها الدكتور حسن .. لقد ادخلها الحمام .. وأخذ يغسلها
بنفسه.. قضى ثلاث ساعات يغسل فيها .. كما قالت لى
الفتاة .. ثم ..

وسكت الأسطى صالح وهو يهز رأسه ويمصمص
شفتيه، ثم رفع عينيه إلى ، وقال كأنه انتهى من حديثه :
— هذا هو سر الدكتور حسن ..

وقلت وأنا أحاول أن احتفظ بوجهي جامدا لأخفى وراءه
دهشتي :

— كم كان عمر الفتاة ؟

قال وهو يزفر أنفاسه :

— صغيرة .. فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة !!

وابتسمت .. هذا ما كنت انتظره .

وعدت اسأل الأسطى صالح :

— وكيف كانت حالة الدكتور حسن فى هذا اليوم .. ماذا

لاحظت على تصرفاته ؟

قال :

— كان طبيعيا .. عاديا .. هادئا .. متزنا .. كعادته ..

حتى الفتاة لاحظت هدوءه واتزانه .. وهو يغسلها

فى الحمام ..

قلت :

— وماذا كانت حالته في اليوم التالي .. ماذا قال لك ؟

قال :

— لا شيء .. كأن شيئاً لم يحدث .. لم يحاول حتى أن يفسر سبب اختفاء الفتاة من البيت .. ولم أحاول أن أسأله احتراماً له .. وأصبح هذا مفهوماً بيننا في كل مرة يحدث نفس الشيء .. ألا يقول لي شيئاً .. ألا أسأله .. وكان شيئاً لم يحدث .. كل ما هنالك أنه يعطيني خمسة جنيهاً .

قلت بسرعة :

— وكان نفس الشيء يحدث في كل مرة تذهبان إلى

الإسكندرية ؟

قال :

— لا .. ليس في كل مرة .. إننا نذهب إلى الإسكندرية كل أسبوع .. وعدد المرات التي حدثت فيها هذه الحالة للدكتور حسن، لا تتجاوز ست أو سبع مرات خلال خمس سنوات ..

قلت :

— ودائماً تحدث هذه الحالة بلا مقدمات ؟

قال :

— دائماً بلا مقدمات .. فجأة !

قلت :

— ودائماً نفس الصنف من البنات ؟

قال :

— دائماً نفس الصنف .. بائعة يانصيب . شحاذة ..

حتى أصبحت أنا نفسي اهدىء من سرعة السيارة كلما
مررت بواحدة منهم ، لعله يأمرنى بالوقوف .

قلت :

— ودائما صغيرات ..

قال :

— ودائما صغيرات ..

قلت :

— ودائما يدخلن الحمام ويتولى غسلهن بنفسه ؟

قال :

— دائما ..

قلت :

— لقد سافرت معه مرة إلى أوروبا ، فماذا كان يحدث .

هناك ؟

قال . وقد بدأ يسترد كل جراته ووقاحته :

— لا شيء .. لا شيء أبدا .. قضينا هناك شهرا ونصفا

الدكتور حسن أعقل وأهدأ رجل في العالم .. وهذا ماجئنى ..

أوروبا مليئة بالبنات الصغيرات الجميلات .. كلهن نظيفات

لسن في حاجة إلى حمام .. والدكتور حسن هناك بعيد عن

زوجته .. ولا أحد يعرفه .. ويستطيع أن يفعل ما يشاء دون

أن يتعرض لفضيحة .. ولكنه لم يفعل شيئا .. كأنه قديس ..

إلى أن عاد إلى مصر .. وبعد عودته بأسبوعين اثنين ، التقط

بائعة يانصيب في الاسكندرية .. حاجة تجنن .. ذوق يقرف ..

أنا نفسى كنت أنال أى فتاة أريدها فى أوروبا .. والدكتور حسن لا يعجبه إلا بائعات اليانصيب فى الأسكندرية .. تفتكر إيه السبب يا دكتور .. لازم عقدة !

قلت وأنا ابتسم له :

— لو عرفت السبب .. لعرفت العقدة .. ولشفى الدكتور حسن.

ثم قمت واقفا ، مستطردا :

— هذا يكفى اليوم يا أسطى صالح ..

ووقف أمامى مترددا يريد أن يقول شيئا .. وفهمت

ما يريد أن يقوله .. فقلت له وأنا أصافحه :

— تستطيع أن تعود إلى عملك غدا .. سأحادث الهانم

بالتليفون الآن !

وتركنى ..

حائرا ..

ورأسى بين يدى ..



كان ما عرفته من أسرار الدكتور حسن عن طريق سائقه الخاص ، ما هو إلا انعكاسات عقده النفسية على تصرفاته الخارجية .

ولكن ..

ما هى عقده ؟

ما هى العقدة التى تدفعه إلى اشتهاى البنات الصغيرات ،

ويصل به الاشتهااء إلى حد التقاط بائعات الياانصيب من الشارع ؟

إنى أرجح أنها عقدة بسيطة .. ليست عقدة مركبة .. ليست عقدة ازدواج فى الشخصية ، مثلاً .. أو عقدة التوقف فى نمو الشخصية .. ولكنها على كل حال عقدة .. ليست مجرد مزاج .. فإن رجلاً فى مثل مكانة الدكتور حسن لا يمكن أن ينساق وراء مثل هذا المزاج ، إلا إذا كان فى داخله قوة لا يستطيع أن يقاومها تدفعه إليه .. وهو ينساق وراء هذه العقدة .. وهو بكامل وعيه .. بكامل شخصيته .. إنه يلتقط البنت من الشارع وهو يعلم أنه أحد كبار رجال الاقتصاد فى البلد .. ويدخل بها إلى الحمام ويظل يغسل بها ثلاث ساعات ، وهو يدرى تماماً ما يفعله .. ورغم ذلك فكل هذه التصرفات ليس مبعثها العقل الواعى .. إنها تنطلق من العقل الباطن .. نتيجة صراع مع العقل الواعى .. كل ما هناك أن العقل الواعى — عقل الرجل المثقف — يرفض أن يسلم بهزيمته أمام العقل الباطن .. فيتبنى هذه التصرفات .. يتبناها على أنها تصرفاته هو — أى العقل الواعى — لا تصرفات العقل الباطن .. ويستطيع أن يجد لها من التحليل المنطقى ما يقنع به نفسه .. فيقول إن ما يفعله ما هو إلا مجرد لهو بدل أن يلعب القمار ، أو بدل أن يذهب إلى السينما .. وقد يقول إنه يقوم بدراسة اجتماعية لبنات الشارع .. وقد يقول إنه مجرد شذوذ العباقرة .. إلى آخر

هذه التعليقات التي تلهيه عن الإحساس بخطورة تصرفه ، وعن الإحساس بالصراع النفسى والمعاناة النفسية التي يعيش فيها .

ولكن هذه التعليقات .. أو هذا التحليل المنطقى .. لا يقنع العقل الواعى إلا فترة محدودة تكفى لموافقته على ارتكاب الفعل الذى يطالب به العقل الباطن .. ثم بعد ذلك .. بعد أن يتم ارتكاب الفعل ، يذوب اقتناع العقل الواعى به .. وتبدأ حالة من المعاناة النفسية ، نسميها فى حياتنا العادية .. الندم !

وكلنا نتعرض لهذه المعاناة النفسية .. كلنا آتينا بأفعال أقرنا عليها العقل ، ثم بعد ذلك ثار العقل عليها .. ووقعنا فى الندم .. قد تقول كلمة نفاق لصديق .. أو قد تعلن - وأنت فى كامل وعيك - سرا من أسرارك .. أو قد تقرر أن تبتسم لفتاة ابتساماً لها معنى خاص .. ثم بعد ذلك تقع فى الندم .. وتظل حالة الندم تطاردك أياماً طويلة .. أسابيع .. شهوراً .. وتهز كيائك كلما تذكرت الفعل الذى أتيت به .. إلى أن تبتعد هذه الذكرى مع الزمن عن عقلك الواعى ، وتسقط فى عقل الباطن ، فلا تعود تعاني الندم إلا إذا قفزت الذكرى مرة ثانية لسبب من الأسباب ، إلى عقلك الواعى .

فحالة الندم هى حالة وعى ، لا حالة غيبوبة أو حالة « لا وعى » كبقية الحالات النفسية .. فالدكتور حسن يعاني من وعيه بتصرفاته الشاذة لا من « لا وعيه » بها .. ولأن هذه

التصرفات تعتبر انحرافا حادا في شخصيته بالنسبة لمكانته العلمية التي يحس ويزهو بها .. فإن معاناته تشتد .. وتشتد أكثر .. إلى أن تؤثر في مركز أعصاب داخل المخ .. فيصاب بحالة الشلل المؤقت ..

بقى أن نعرف هذه التصرفات التي يأتي بها الدكتور حسن .

التصرفات التي يطلقها العقل الباطن ، ويتبناها العقل الواعي في لحظة من اللحظات .

ولم أكن أستطيع أن أصل إلى هذا السر إلا عن طريق الدكتور حسن نفسه .

والدكتور حسن راقد في فراشه مشلولا .. ولا أحد يدرى متى يستيقظ لسانه الراقد خلف شفثيه .. ربما بعد يوم .. ربما بعد أسبوع .. ربما بعد سنة .

وليس أمامي إلا أن اصبر ..

وقررت الصبر وأنا أضع أمامي مجموعة من النقاط الهامة التي توصلت إليها حتى الآن .. أولها أن الدكتور حسن بدأ يلتقط البتات الصغيرة من الشارع ، بعد زواجه بثلاث سنوات .. وقبل ذلك لم تكن له أى تصرفات شاذة .

وثانيها أن الدكتور حسن لا يندفع في هذه التصرفات إلا وهو في مصر .. ولا يرتكب شيئا وهو في أوروبا ، رغم أن المجال هناك أوسع وأكثر أمنا .

والنقطة الثالثة ، هي التفاوت الكبير بين البيئة الشرقية

المحافظة التى نشأ فيها ، والآراء المتحررة التى يؤمن بها ،
والتي يدافع عنها بحرارة ، كدفاعه عن حرية المرأة فى حرية
الحب قبل الزواج .

والنقطة الرابعة : هى أن شذوذه منحصر فى تتبع البنات
الصغيرات .. بنات الرابعة عشرة .. وإنه شذوذ جنسى ..
بدليل تحسسه أنفه ، كلما مرت به فتاة صغيرة ، وبدليل أنه
رفض أن ينام فى البيت عندما جاءت ابنة صديقة زوجته
لتقيم فيه .. ثم بدليل أن كل بائعات اليا نصيب اللاتى
التقطن من الشارع كن فى نفس السن ، سن الرابعة عشرة
والخامسة عشرة .

والنقطة الخامسة ، أن الحالات التى كانت تدفع الدكتور
حسن إلى هذا الشذوذ ، كانت حالات متباعدة .. ست أو
سبع حوادث خلال خمس سنوات .

وسجلت هذه النقاط فى مذكراتى الطبية ، ثم اتصلت
بالسيدة حرم الدكتور حسن ، لأرجوها أن تعيد السائق إلى
خدمتها ، كوعدى له .

وصرخت فى سماعة التليفون .

— لماذا ؟ أنت الذى أمرتني أمس بأن أطرده ..

قلت :

— كنت أريد أن أضغط عليه ليتكلم ..

قالت بلهفة :

— وهل تكلم ؟

قلت :

— نعم ..

— ماذا قال ؟

ثم استطردت كأنها تحدد سؤالها :

— اقصد .. ماذا قال عن الدكتور حسن ؟

قلت في هدوء أحاول أن اربط به لهفتها :

— ليس هذا وقته .. ستعلمين كل شيء في حينه .. كل

ما أرجوه أن تعيدى السائق إلى الخدمة .. لقد وعدته !

وسكنت قليلا ثم قالت في حدة وغيظ :

— حاضر .. مساء الخير ..

وألقت سماعة التليفون قبل أن تسمع رد تحيتها .



وفي اليوم التالي فوجئت بحرم الدكتور حسن في عيادتي ،
تصر على مقابلتي .. حالا .. واستقبلتها في الفترة التي أخلو
فيها إلى نفسي بين كل حالة وأخرى من الحالات التي
أعالجها ..

كانت مضطربة .. عيناها قلقتان .. وشعرها ليس
مستقرا على رأسها كما تعودته .. وثوبها ارتدته على عجل ..
ليس مهندهما كالعادة .. وقالت بسرعة وهي تخرج من
حقيبتها علبة سجائرها الذهبية وتشعل لنفسها سيجارة ..
وعود الثقاب يرتعش بين أصابعها :

— اسمع يا دكتور .. يجب أن أعرف ماذا قال لك

الأسطى صالح عن الدكتور حسن ؟
ولم أرد عليها .. سكت هنيهة ، فاستطردت قائلة
وصوتها يعلو ويحتد :

— إننى زوجته .. ويجب أن أعرف كل شيء .. إننى أحق
منك بمعرفة كل أسرارهِ .
قلت فى هدوء :

— إننى طبيب .. والأسرار التى اسمعها تصلنى كطبيب ..
ومهنى تحتم على أن احتفظ بها .. هذا ما يمليه على شرفى
وقسمى .
قالت :

— إننى أحاول أيضا أن أعالجه .. وقد احتملت فى علاجه
حتى الآن ، أكثر مما يحتمل أى طبيب .. ثم إننى زوجته ..
وقلت محتفظا بهدوئى :
— هل تريدان شفاءه ؟
قالت فى حماس صادق :
— طبعا .
قلت :

— صدقنى أن معرفتك بأسرارهِ لن تساعد .. على
الشفاء .. لو كانت تساعد لصرحت لك بها .. فإن شفاءه
هو الأهم ..

قالت وهى لا تزال محتدة :
— من أدراك أنها لن تساعدنى على شفائه ؟

قلت هادئا :

— إنى أدرى بمهنتى ..

وسكتت .. وغمست سيجارتها فى المنفضة قبل أن تتم
تدخينها.. وقالت وهى لا تزال تضغط بأصابعها على
السيجارة كأنها تقتلها :

— إذن لن تقول لى شيئا ..

قلت :

— لا .. لن أقول شيئا ..

قالت :

— سأسال الأسطى صالح .. لن أعيده إلى الخدمة إلا إذا

قال لى كل ما قاله لك ..

قلت وأنا انظر إليها جادا :

— إنك بذلك تقضين على زوجك .. إن معرفتك بهذه

الأسرار ستجعل منك أداة للقضاء عليه نفسيا .. سيتحطم ..

قالت :

— إلى هذا الحد تعتبر أسراراً خطيرة ..

قلت :

— لا .. ليست أسراراً خطيرة ، ولكن معرفتك بها فى هذه

المرحلة بالذات من مراحل العلاج ، هى الخطيرة ..

وسكتت ..

واستطردت قائلاً بعد هنيهة :

— لقد احتملت كثيراً حتى الآن .. وكل ما اطلبه منك أن

تحتل فترة أخرى .. وأنا واثق أنها ستكون فترة قصيرة ..
أرجوك .. ثقي بى ..

ومالت فى جلستها كأنها تستريح من حديثها ، وأسندت
رأسها على كفها ، ثم قالت بعد هنيهة ، فى صوت خفيض :

— وماذا تنوى أن تفعله الآن ؟

قلت وأنا ابتسم لها :

— سأنتظر انتهاء حالة الشلل .

قالت :

— وبعد ذلك ، أنت واثق من الشفاء ..

قلت :

— إنى لا أستطيع أن أثق إلا بعد أن يتم الشفاء فعلا ..

قالت وهى تبتسم ساخرة :

— أنت دائما لست واثقا من شىء .. ولا متأكدا من

شىء ..

قلت :

— إنى على الأقل أصبحت متأكدا من أن الدكتور حسن

مريض نفسيا .

ونظرت إلى بدهشة ، وقالت :

— لم يكن يكفى أن أقول لك أنه مريض ، لتصدقنى ..

قلت وأنا ابتسم :

— الواقع أنى كنت حائرا .. لم أكن متأكدا من منكما

المريض ، وكل منكما يصف الآخر بالمرض .

ونظرت إلى وابتسامة ساخرة بين شفتيها .. ثم تنهدت في
أسى.. وقامت من جلستها !

وكتبت اسم دواء بسرعة على ورقة روشة ، ومددت يدي
بها إليها .. قالت :

— ما هذا ؟

قلت مبتسما :

— دواء مهدئ للأعصاب .. إنني واثق أنك في حاجة
إليه ..

قالت :

— ألا زلت تشك انى مريضة ؟

قلت :

— لا .. ولكنك متعبة .. الأيام التى مرت بك كانت
صعبة ..

وأخذت الروشة من يدي ، وابتسامتها الساخرة تتسع
فوق شفتيها .. وخطت نحو الباب .. وخطوت معها ..
ووضعت يدي على أكمة الباب ، وتريثت قبل أن افتحه ..
وعدت أقول لها :

— هل قلت لى فى زيارتك السابقة كل شىء ؟

قالت وهى تنظر إلى فى لوم :

— نعم .. كل شىء !

قلت :

— هل علاقتكما الزوجية الخاصة طبيعية ، كما قلت لى ؟

قالت :

— نعم .. أنا لم أكذب عليك .. ولكن لماذا ؟

وقبل أن أجيب ، استطردت قائلة :

— إنى أعرف أنك لن تقول لى لماذا عدت تسألنى هذا

السؤال .. ولكن ثق أنى لو جننت فستكون أنت السبب ..

قلت متجاهلا كلامها :

— كيف حال الدكتور حسن اليوم ؟

قالت :

— أحسن .. لقد بدأ يحرك ذراعه ...

قلت :

— أوصيك به .. حاول أن تعامله برقة أكثر ..

لا تشعر به أنك اتصلت به مرة ثانية .. أو أننى اتصلت

بسانقه ..

قالت وهى تتنهد :

— سأحاول ..

وخرجت ..



ومررت عشرة أيام ، كنت خلالها اطمئن على صحة

الدكتور حسن بالتليفون .. وعرفت أن أزمة الشلل بدأت

تخف أكثر .. بدأ يحرك لسانه .. ثم بدأ يتكلم .. ولكنه

لا يزال فى الفراش مريضاً ..

ولم يكن من خطئى أن أفرض نفسى على الدكتور حسن

مرة أخرى .. كان يجب أن انتظر أن يأتى إلى نفسه ..
وكنت اعتمد فى ذلك على رؤيته لى أثناء أصابته بالشلل ..
وأنه أحس عندما رأتى بأتى كشفت عورته النفسية .. وأنه
مضطرب بعد ذلك إلى أن يأتى إلى كمريض ، لا يستطيع أن
يذكر مرضه ، أو يخفى على عورته !

وفى اليوم العاشر .. اتصل بى الدكتور حسن بالتليفون
يطلب تحديد موعد لمقابلتى .. فى العيادة .. وكان يتكلم
ولسانه ثقيل .. كأنه يبذل مجهودا كبيرا لتحريكه .. وحددت
له موعدا فى نفس اليوم .. الساعة الخامسة :
وجاء ..

يحاول أن يبدو مغرورا مزهوا كعادته ، ولكنه
لا يستطيع .. أنه يقاوم الانهيار .. يقاوم بقوة ضخمة ..
وتترك المقاومة فى مظهر تصرفاته ضعفا واستسلاما ..
وجلس على المقعد الكبير ، ورفع ساقه الطويلة فى بطء
ووضعها فوق الساق الأخرى ، ثم شبك أصابعه فوق ركبته
وقال وهو لا ينظر إلى :

— لقد اعترفت بينى وبين نفسى أنى قد أكون فى
حاجة فعلا إلى طبيب نفسانى .. اقتنعت بكلامك بأن
الإنسان لا يستطيع أن يغوص فى قاع المحيط إلا إذا استعان
بحجر ثقيل .. وأن من يريد أن يغوص فى نفسه ، يجب أن
يستعين بطبيب نفسانى .. بدلا من الحجر الثقيل .. لهذا
جئت إليك ..

قلت :

— إنى فى خدمتك !

قال :

— وسبب آخر دفعنى إليك .. وهو حالة زوجتى العصبية .. إنها رغم محاولاتها الكثيرة لضبط أعصابها ، أصبحت أكثر عصبية .. وربما تهدأ عندما تعلم أنى بدأت أتردد عليك .

قلت فى هدوء :

— إنها جزعة عليك ..

قال وهو يزفر أنفاسه ولسانه يتحرك بصعوبة :

— ربما ..

ثم انزل ساقه من فوق الساق الأخرى ، وقال وهو يبتسم ابتسامة تسقط على جانب شفتيه :

— هل نبدا الآن ؟

وقبل أن أجيبه قام من على مقعده ، وخطا نحو الأريكة ، وركد عليها .. وتنهد فى راحة ، كأنه فى حاجة فعلا إلى الرقاد ..

سرت وراءه دون أن أعلق بشيء .. وجلست خلف رأسه ، ونوتة المذكرات بين يدى لأسجل فيها كلامه .

وبدا يتكلم ..

تكلم كثيرا رغم الصعوبة التى يعانيتها فى الكلام .. ورغم ذلك لم يقل شيئا جديدا .. تفاصيل كثيرة عن بيئته المحافظة

وعن عقلية أبيه المتزمته .. وعن أمه المحجبة . وأخته التي لم يكن مسموحاً لها أن تطل من الشباك .. وعن دراسته .. وعن مغامراته النسائية القليلة .. ثم بدأ يتكلم عن زوجته .. وأيضاً لم يقل شيئاً جديداً أكثر مما قاله لى في زيارته السابقة .. إلا أن قال إنه يعتقد أنها تحب السيطرة .. وأراد أن يتعدى هذا التعليق بسرعة .. ولكنى سألته :

— ماهر مظهر حبها للسيطرة ؟

قال ولسانه الثقيل يتحرك ببطء :

— إنها تجمع كل شيء في يديها .. كل شيء .. يجب أن تعرف كل ملهم يدخل جيبى .. وكل خطوة أخطوها .. ويجب أن تفرض نظامها على كل حياتنا .. هى التى تحدد أصدقاءنا .. وهى التى تأمر وتنهى فى الخدم .. وهى التى تختار مدرسة ابننا ..

قلت :

— لقد قرأت كثيراً فى علم النفس .. فكيف بررت حبها للسيطرة.

قال وهو يبتسم مزهواً بشهادتى له بأنه خبير فى علم النفس :

— ربما لأنها تعتقد أنها سيدة كاملة .. لا تخطئ أبداً ..

قلت :

— وهل تعتقد أنت أنها لا تخطئ أبداً ..

قال :

— لا .. ليس هناك إنسان لا يخطيء .

قلت :

— ما هي أخطاؤها ؟

قال :

— حبها للسيطرة مثلا ..

ثم انتقل بسرعة ، وقبل أن أسأله سؤالا آخر ، إلى الحديث عن ولده .. وبدأ لسانه يتثاقل أكثر .. وبدأت عيناه تغفوان كأنه على وشك النوم .

قلت :

— هذا يكفى اليوم ، يا دكتور .. إنك في حاجة إلى النوم

قال وهو يقوم من رفقته وعلى شفثيه ابتسامة مريحة :

— أتدرى .. لقد اكتشفت أن مجرد الكلام راحة !

قلت وأنا ابتسم له :

— سنتكلم مرة أخرى ، بعد غد !

وخرج ، بعد أن حددت له موعدا استثنائيا .



وعاد إلى في مواعده بالضبط .. واللهفة تبدو على وجهه ..
لهفة إلى .. واختصر كل المقدمات ، ورقد على الأريكة وبدأ يتكلم .. تكلم طويلا أيضا .. ولكنه لم يقل شيئا مما أريد أن يواجهنى ويواجه نفسه به .. إنه لا يزال يرفض الاستسلام .

وتركته يتكلم وأنا منتبه إلى كل كلمة يقولها ، لعل أجد

كلمة أستطيع أن أنفذ منها لأساعده على مواجهتى بالحقيقة.. ولكنه دائما شديد الذكاء .. لا يترك لى كلمة أنفذ منها إليه .

وانتهت الجلسة الثانية بلا أدنى تقدم .. وبدأنا الجلسة الثالثة.. بعد خمسة أيام .

وأخذ كالعادة يدور فى حديثه دون أن يقترب من شذوذه .. وتركته يتحدث .. نصف ساعة على الأقل .. وفجأة قاطعته ، وقمت واقفا من جلستى خلف رأسه والقيت نوبة المذكرات على مكتبى ، وقلت فى لهجة جادة :

— لا امل يا دكتور حسن .. إننا لن نصل إلى شىء ..

ورفع رأسه من فوق الأريكة ، وقال فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟

قلت فى لهجة أكثر جدية ، كأنى نفضت يدى منه :

— اعنى أنك لا تثق بى .. ولا تحاول أن تثق بى ..

قال كأنه يستعطفنى :

— ولكنى اثق بك .. أن مجرد ترددى عليك دليل على

ثقتى بك .

قلت :

— لا .. ليس هذا دليلا على الثقة .. إنك تأتى إلى لأنك

تأمل أن اشفيك دون أن تقول لى شيئا من أسرارك .. إنك

كالمرضى بالسرطان الذى يقنع نفسه بأنه مصاب بالصداع

وإنه يكفى أن يتناول قرصين أسبرين .. ان ما تفعله الآن

هو أنك تعالج نفسك بالأسبرين في الوقت الذي تحتاج فيه إلى عملية جراحية ..

قال :

— لم يخطر على بالي شيء من كل ذلك .. إنى لا أحاول أن أخفى عنك شيئاً .

وكننت أعلم أن حالته الصحية أصبحت تحتل أى مفاجأة أطلقها عليه .. فقلت بنفس اللهجة الجادة دون أن أحاول أن أخفف منها :

— لقد أخفيت عنى كل شيء .. حدثتني عن سفرك الكثير إلى الإسكندرية .. وعن أعمالك هناك .. وأصدقائك .. وبيتك .. ولكنك أخفيت أهم شيء .. أخفيت أنك كنت تذهب إلى هناك وتلتقط بائعات اليانصيب الصغيرات وتأخذهن إلى البيت .. و ..

وقفز جالسا فوق الأريكة .. وقال وعيناه متسعتان :

— من قال لك هذا الكلام ؟

قلت . وأنا أسرع واجلس فوق المقعد الموضوع بجانب الأريكة حتى لا اضطره إلى القيام من عليها :

— ليس مهما أن تعرف من قال لى هذا الكلام .. ولكن المهم أن تقوله لى أنت ..

وعاد وألقى جسده على الأريكة .. القاه مرة واحدة كأنه سقط فوقها مغشيا عليه .. وسكت برهة .. برهة طويلة .. ثم اغمض عينيه ، وقال كأنه يخاطب نفسه :

— هذه حياتي الخاصة .. كل رجل له حياته الخاصة ..
ان أعظم الرجال قد نجده على علاقات مع خادمت .. إنه نوع
من اللهو أكثر منه نوعا من الشذوذ .. وهو لهو عنيف .. هذا
صحيح .. ولكنى قرأت لك بحثا تقول فيه ان الرجل الذى
يحمل مسئوليات كبيرة يحتاج إلى اللهو العنيف لينسى هذه
المسئوليات .. وأنا أحمل مسئوليات كثيرة .. ضخمة ..
مرهقة .. وقد بدا لى أن الهو هذا النوع من اللهو .. كثير من
العظماء يترددون على الأماكن الحفيرة .. والنساء الحفيرات ..
لمجرد اللهو .

وسكت برهة .. ابتلع ريقه .. وبلبل شفثيه بلسانه .. ثم
قال كأنه يحاول أن يقتنع نفسه :
— إنه ليس شذوذا جنسيا كما قد تعتقد .. ولكنه نوع
من الدراسات الاجتماعية .

وعاد يسكت ..

وسكت برهة أطول ..

وقلت استحثه على الكلام قبل أن تضيع قوة المفاجأة
التي دفعته ليتكلم :

— وبماذا خرجت من هذه الدراسات الاجتماعية ؟

وفتح عينيه .. وعلت شفثيه ابتسامة ساخرة ، وقال :

— أتدرى .. ليس بينهن بنت واحدة عذراء .. بنات فى

الثانية عشرة .. ولسن عذارى !

ثم استطرد وابتسامته الساخرة لا تزال على شفثيه :

— ولكن .. هذا لا يهم ..

قلت :

— لماذا لا يهم .. بالعكس .. إنه شيء مثير ..

ورفع رأسه يحاول أن يرى وجهى .. ثم عاد وخفض رأسه ، وقال كأنه يلومنى :

— يا دكتور .. أنت رجل مثقف وتعلم أن عذرية البنت لا تعنى شيئا .. لا تعنى على الإطلاق أنها شريفة .. أو أن جسدها طاهر لم يمسه بشر .. إن هذه العذرية ليست سوى وهم ابتكرته عقلية الرجل الشرقى .. العقلية التافهة الأنثوية .. لقد اعتبر أن المرأة ليست سوى قطعة بضاعة .. شيء يجب أن يقدم إليه ملفوفا بورق السوليفان ومختوما بختم المحل .. ختم المحل فى نظره هو العذرية .. أو غشاء البكارة .. وهذا الرجل الشرقى الغبى لا يعلم حتى الآن أن ختم المحل هذا يباع عند أى طبيب جراح بخمسة جنيهات .. خمسة جنيهات فقط وتستطيع أى امرأة أنجبت عشرة أطفال أن تعود عذراء .. عذراء مزيفة .

كان يتكلم بانفعال غريب ، كأنه يدافع عن قضية كبرى .. عن إيمانه .. ولسانه الثقيل يترنج بقوة حماسه كأنه سكران ..

وخطر لى خاطر وأنا أستمع إليه بكل أذنى ..

خاطر غريب ..

خاطر خطر ..

إنه ليس خاطرا .. إنه استنتاج .. ولم يكن من حقى أن استنتج .. فإن خير وسيلة للعلاج النفسانى هى ألا يستغل الطبيب استنتاجه فى توجيه المريض ، حتى يترك له مهمة كشف الطريق بنفسه .. ولكن حالة الدكتور حسن حالة استثنائية .. فهو يعرف الطريق .. وكل ما هنالك أنه يهرب منه.. لا يريد أن يسير فيه .. فكان يجب أن أساعده باستنتاجى .. أن اكتشف بنفسى الطريق حتى أجره إليه .. ورغم ذلك .. فقد ترددت .. خشيت أن يكون استنتاجى كاذبا .. والاستنتاج الكاذب أخطر على المريض .. أنه يبعده أكثر عن الطريق .. يعطيه فرصة أكبر للهرب .

وعاد الدكتور حسن يتكلم ، وقد شجعه سكوتى .. بدا له أنه أقنعنى .. وقال ولسانه الثقيل يترنح كالسكران :

— الشرف يا دكتور هو شرف الروح ، شرف الفكرة ، شرف الكلمة .. أما الجسد فلا يمكن أن يكون شريفا أو غير شريف .. إن الجسد هو الوعاء الحيوانى للإنسان .. هل يمكن أن تكون الجاموسة شريفة أو غير شريفة .

ثم ارتفع صوته أكثر ، قائلا :

— بالله عليك يا دكتور .. كيف نوزع الشرف على أعضاء جسد المرأة .. إذا لمست هذا الجزء لم يتأثر شرف الفتاة .. وإذا لمست هذا الجزء ضاع شرف الفتاة .. كلام قاضى ..

وسكت ريثما ابتلع ريقه .. ثم استطرد كأنه يتم إلقاء محاضرة حفظها جيدا ورددها فى نفسه عدة مرات .

— إن العالم المتمدين يعلم أن الموضوع كله متعلق بتنظيم النسل ، لا بالشرف .. وهم لا يشغلون أنفسهم به إلا بقدر حاجتهم إلى تنظيم النسل .. لذلك تقدموا .. أعطوا طاقتهم الذهنية والفكرية للتقدم .. لبناء المدنية .. أما هنا في الشرق .. فلأنهم لا يستطيعون أن يواجهوا الواقع .. لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم من فوق أقدامهم .. لا يستطيعون أن يتخلصوا من أنانيتهم .. أنانية الرجل الذي يصير على أن جسد المرأة بضاعة .. شيء يشتره .. فقد ضاعت طاقتنا في كلام فارغ .

وتركته يتكلم حتى أفرغ كل ما في صدره .

ثم قلت في هدوء :

— وزوجتك ؟!

وسكت قليلا كأنه لم يسمعني ، ثم انتفض جالسا فوق الأريكة ونظر إلى كأنه مذعور وقال ولسانه يكاد يموت خلف شفتيه :

— ماذا تقصد ؟

قلت بنفس الهدوء ، وأنا أسيطر على كل خلجة في وجهي :

— هل كانت زوجتك عذراء ؟

وقفز واقفا ، وقال وإنفاسه تتلاحق :

— ما دخل زوجتي في هذا الموضوع .. بل ما دخل كل

هذا الموضوع في حالتي .. إذا كنت تصر على أن حالتي تستدعي العلاج .

وأنفاسه تتلاحق ..
 وقطرات العرق تنبثق من جبينه .
 وفمه مفتوح .. ينظر إلى في حقد وغيظ .. وبقيت صامتا
 انظر إليه بعينين ثابتتين ..
 وانطلق قائلا وهو يرتعش .. كل ما فيه يرتعش :
 — اسمح لي يا دكتور .. يبدو أنك لم تقرأ إلا كتابا واحدا
 في علم النفس .. إن الآراء التي تدور في رأسك كلها قديمة ..
 قديمة .. لقد استحدث علم النفس نظريات أخرى ..
 حاول أن تطلع .. عن أذنك ..
 وخطا نحو الباب ..
 وعاجلته قائلا في هدوء :
 — لن يفيدك الهرب ..
 والتفت إلى .. وعاد يقف مرتعشا .. ثم ترددت نظراته
 هنيهة .. وفجأة عاد إلى الأريكة ، وألقى نفسه عليها .. وقال
 وأنفاسه تتلاحق:
 — زوجتي لم تكن عذراء .. ولكن هذا لا يهم .. لقد
 كانت تحب قبل أن تتزوج .. وكان من حقها أن تمارس
 حريتها في الحب .. و ..
 وقاطعته :
 — هل قالت لك قبل الزواج أنها ليست عذراء ..
 قال وصوته البطيء يحتد :
 — لم تقل شيئا . ليس هذا موضوعا يثار بين اثنين من

المثقفين.. ولم تكن لا أنا ولا زوجتى نعلق عليه أى أهمية ..
هل تصبح امرأة أخرى مادامت ليست عذراء .. هل ..
وقاطعته مرة ثانية قائلًا فى هدوء :

— وأختك ؟

وصرخ بأعلى صوته :

— مالها أختى ؟

وخفت صرخته .. ثم استطرد قائلًا وابتسامة فيها حنان
كبير تعلو شفتيه :

— أختى إنسانة أخرى .. أختى لم يمسه إلا زوجها ..
إنها نقية كالبلور .. طاهرة كاللألثة .. وربما لم يكن لها
فصل فى نقائها ، فقد تولى المجتمع الذى عاشت فيه
حمايتها .. و ..

وقطع كلامه مرة واحدة ، ونظر إلى نظرة جادة قوية ،
وقال فى صوت آخر :

— يادكتور ، أنا لا اسمح لك بالكلام عن أختى .. حتى
ولو كان فى كلامك عنها شفائى .

قلت :

لن أتكلم عنها .. ولا اعتقد أننا أصبحنا فى حاجة إلى مزيد
من الكلام .

ونظر إلى فى دهشة وبقية من أنفاسه المتهدجة لا تزال
تردد فى صدره .. وقال :

— ماذا تقصد .. هل انتهى العلاج ..

قلت :

— تقريبا ..

قال :

— كيف ؟

قلت :

— إنك تعرف الآن سر أزمك النفسية التي تؤدي إلى
إصابتك بالشلل !

قال :

— لا .. لا أعرف .

قلت :

— بل تعرف .. فكر قليلا .. وواجه نفسك .. وستعرف ..
وحنى رأسه وقال بصوت مبخوح :

— تقصد زوجتى .. لأنها ليست عذراء .. ولكنى كنت
طول الوقت أعرف أنها ليست عذراء .

ونقلت المقعد الذى كنت أجلس عليه حتى واجهته ،
وقلت وعينائى فى عينيه :

— استمع إلى جيدا .. وسأروى لك تاريخ حياتك
النفسية .. عندما التقيت بديرة واتفقتما على الزواج ، روت
لك حكاية علاقتها بالرجل الذى أحبه قبل أن تلتقى بك ..
ولأنك رجل مثقف فقد ائذنت نفسك بأن هذه العلاقة
لا يمكن أن تعيبها ، ولا تستحق اهتمامك ، ولكن منذ هذه
الفترة بدأت فى داخل نفسك معركة بين ثقافتك التى توحى

إليك بآرائك المتحررة .. وبين بيتك المحافظة التى نشأت فيها .. أو بين المثل الأعلى للحرية ممثلا فى زوجتك ، والمثل الأعلى للطهارة ممثلا فى أمك وفى أختك .. ثم بعد ذلك .. بعد الزواج .. اكتشفت أن زوجتك ليست عذراء .. وحاولت أن تتجاهل هذا أيضا .. أثبت عليك ثقافتك أن تناقش زوجتك فيه أو تحاسبها عليه .. فاشتد الصراع .. واشتد أكثر . أنهم يقولون دائما أن الشباب الشرقى المثقف يختار الفتاة التى يحبها بعقله ، ويختار الفتاة التى يتزوجها بعقل أبيه .. وقد أردت أنت أن تتجاهل عقل أبيك .. ولكن أباك كان دائما فى داخلك يذكرك بتقاليده ، وآرائه ، وبتعاليم الدين ، وبالبيئة .. وأنت تتماذى فى تجاهله ، وتتماذى فى تحديه .. وكلما تماذيت تماذى هو أيضا فى تذكيرك بنفسه .. والصراع يشتد .. ربما لم تكن تحس به .. ولكنه كان قائما .. قائما بين عقلك الواعى وعقلك الباطن .. ويشتد الصراع أكثر .. وأكثر إلى أن حدث بعد ثلاث سنوات أن التقيت بفتاة من بائعات اليانصيب وأخذتها إلى فراشك .. والواقع أنك لم تكن تبحث عن هذا النوع من البنات الرخيصات .. ولكنك كنت تبحث عن فتاة راقية فى مستوى زوجتك ، بدليل أنك أخذت بائعة اليانصيب وأدخلتها الحمام وبقيت تغسل فيها بيديك ثلاث ساعات وعطرتها ، وربما البستها قميص زوجتك الحيرى .. كل ما هنالك أنك لم تكن تستطيع — وأنت فى مركزك — أن تغازل بنتا من بنات العائلات .. خصوصا وقد

كنت محتاجا في معركتك إلى بنت صغيرة .. في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة .. لماذا .. كى تكون أقرب إلى البنات العذارى .. وكنت تحاول بذلك — دون أن تتعمد طبعاً — أن تنصر عقلك على عقل أبيك .. أو عقل السواعى على عقل الباطن .. فإذا وجدت البنت التى النقطة عذراء فعلاً ، أثبت لعقل أبيك أن البنات العذارى لسن شريفات .. وإذا لم تكن عذراء أثبت له أنه لم يعد هناك بنات عذارى حتى البنات الصغيرات .. وقد كنت تفرح .. تفرح جداً .. عندما تتأكد أن البنت ليست عذراء .

وكان الدكتور حسن يتابعنى باهتمام شديد ، ثم قاطعنى قائلاً:

— ربما كنت أفرح فعلاً .. ولكن لماذا ؟

قلت :

— لا .. بدليل إنك عندما كنت تسافر إلى أوروبا لم تكن تلتقط البنات الصغيرات .. لماذا .. لأنك هناك تكون بعيداً عن زوجتك فتهدأ حدة الصراع النفسى .. وعندما تعود ، تبدأ فى التقاط البنات الصغيرات من جديد .. لأن وجود زوجتك بجانبك يوقظ حدة الصراع .

وسكت الدكتور حسن طويلاً .. ثم قال وصوته مخفوق فى حلقه :

— ولماذا أصاب بالشلل ، إذا كان هذا صحيحاً .

قلت :

— لأنك كنت تخضع نفسك أثناء علاقتك ببائعة
اليانصيب .. وبعد أن تنتهى علاقتك بها .. وتكف عن خداع
نفسك ، ينتبه عقلك الواعى إلى فظاعة فعلته .. وتبدأ حالة
الندم .. هذا الندم ، هو الذى يصيبك بالشلل .
قال وهو يشد أصابع يديه كأنه يحاول أن يخلعها من
يديه ، ورأسه لا يزال منكسا :
— لنفرض أن كل هذا صحيح .. ماذا افعل .. هل اطلق

زوجتى؟

قلت :

— لا .. ولكنك يجب أولا أن تقنع بأن ما قلته لك ليس
مجرد فرض ، إنه حقيقة .. وعندما تقتنع بأنه حقيقة
ستكف عن النقاط البينات الصغيريات لأنك تعلم أنهم سبب
نوبات الشلل .. وأنت تخاف الشلل .. ثم بعد ذلك اعترف
بالقيد الثقيل الذى يربط بين آرائك المتحررة وبينتك
المحافظة ، وإنك لن تستطيع أن تحطم هذا القيد .. اعترف
بأنك كنت تفضل لو أن زوجتك كانت عذراء .. وانها ارتكبت
خطيئة يوم فرطت فى عذريتها .. وناقشها .. وحاسبها ..
دعها تستغفر لك .. وتتوسل إليك .. لترضى طبيعة الرجل
الشرقى فيك .. إن تصرفاتها هى التى ستحدد علاقتك بها ،
ومصير زواجكما .

قال بسرعة :

— لا .. لن أستطيع أن أناقشها .. ولا أن أحاسبها ..

قلت في إصرار :

— هذا أرحم من أن تنتقم منها .. وقد كانت حالتك تنحرف نحو شهوة الانتقام دون أن تدري .. لقد كنت تحاول أن تدفعها للجنون .. وكنت تقنع نفسك أنك فقط توارى جنونك عنها وعنى .. ولكن الواقع أنك كنت قد بدأت تنتقم منها .. ثم .. إن اتهاك لها بحب السيطرة ، ليس إلا حجة تحاول أن تقنع نفسك بها لتبرر انتقامك منها ..

قال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة ساخرة :

— إذا لم تكن تحب السيطرة .. فهي على الأقل شخصية قوية..

قلت :

— هذا يسهل عليك كل شيء .. إن الشخصية القوية أقدر على مواجهة المواقف الحرجة .

وظلت ابتسامته الساخرة عالقة بين شفتيه ثم قام واقفا ، وقال:

— اعتقد أنى فى حاجة إلى أن أخلو بنفسى .. شكرا يا دكتور ..

قلت وأنا أودعه حتى الباب :

— إنك فى حاجة إلى وقت حتى تقرر ما تقبله .. وفى خلال ذلك اعتقد أنك فى حاجة إلى لقائى .. فقط لتتحدث .
وجدت له موعدا آخر ..

وعاد الدكتور حسن إلى مرة .. ومرة .. وفي كل مرة يدور الحديث بيننا طويلا .. مفصلا .. يحاول خلاله أن يزداد اقتناعا بحالته .

وبعد زيارته الثانية ، زارتنى زوجته بعد موعد انتهاء العيادة .. كانت حائرة .. تبدو كأنها تسير في ضباب .. وقالت في لهفة :

— ماذا حدث يا دكتور .. ماذا اكتشفت من حالة

زوجى ..

قلت :

— زوجك شفى .. لن يصاب بالشلل مرة ثانية ..

قالت :

— لا اعتقد .. إنه يتغير إلى إنسان آخر .. إنه يتكلم كثيرا .. ويتكلم في لهجة حازمة غريبة .. كل كلمة منه أصبحت أمرا .. ثم إليّ لاحظ أنه يتجنبنى ..

قلت :

— أنها مظاهر الشفاء ..

قالت في ضيق :

— أرجوك يا دكتور .. أريد أن أعرف كل شيء .

قلت :

— ستعرفين .. الدكتور حسن سيقول لك كل شيء .

قالت :

— متى .. إننى أكاد أجن ..

قلت :

— قريبا .. إنى واثق أنه سيقول لك كل شيء ..
وأرجوك عندما تعرفين حاولي أن تفهميه .. أن تعذريه .

قالت والجزع في عينيها :

— ولكن ..

قلت وأنا أمد لها يدي :

— ثقي بي .. إنك مهما تحملت من عذاب الانتظار ، فلن
تتعذبي قدر ما تعذب ..

وعادت تقول :

— ولكن يا دكتور ..

قلت وأنا أصافحها :

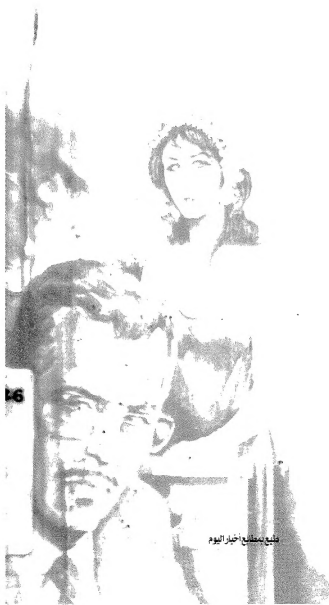
— أرجوك .. ثقي بي ..

رقم الإيداع ٩٧ / ٩٠٤٨

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

977 - 08 - 0663 - 3



تليق بمطالع اختيار اليوم